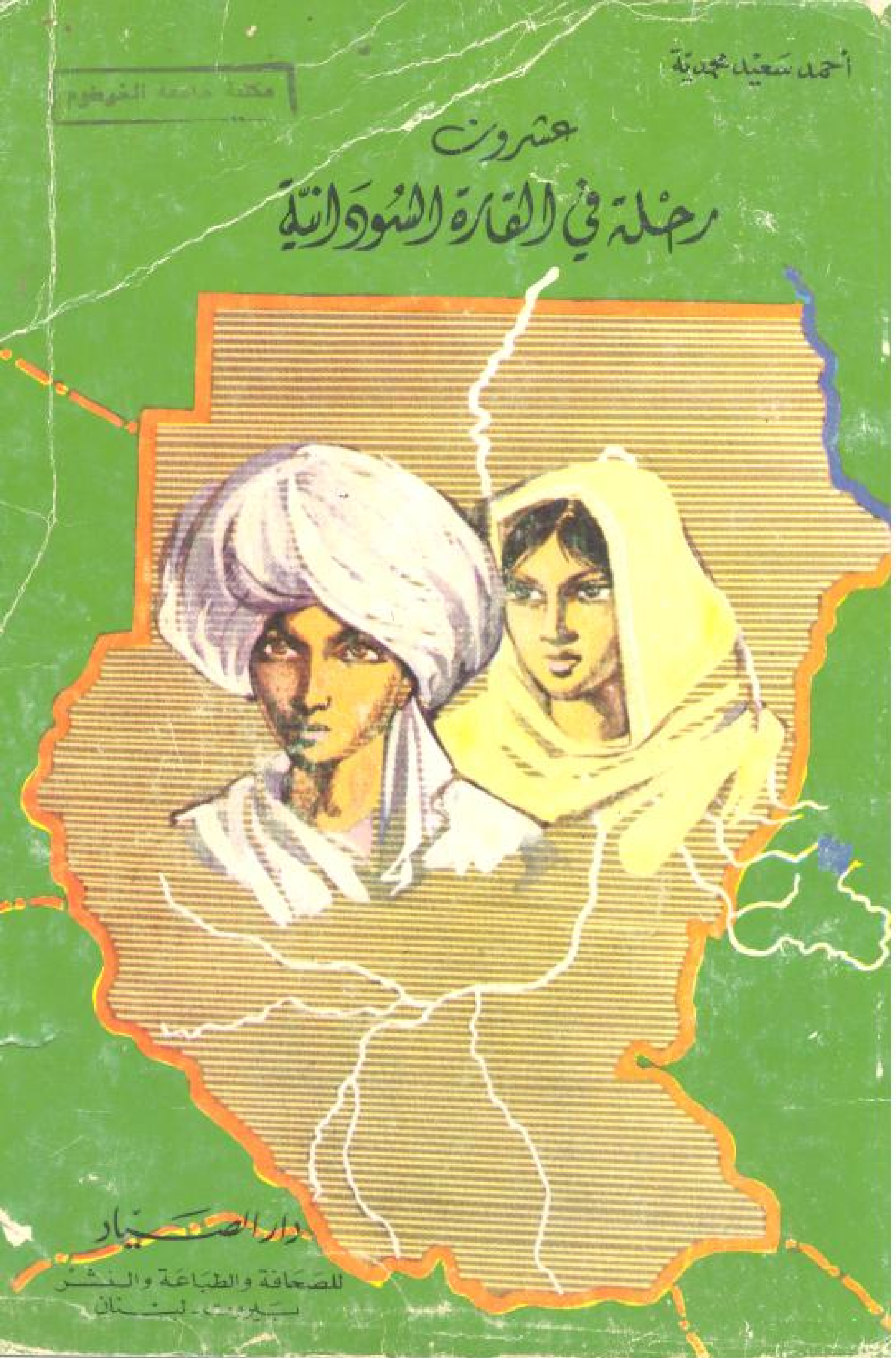


مكتبة جامعة الخرطوم
أحمد سعيد محمدية
عشرون
رحلة في القارة السودانية
دار الصياد
للصحافة والطباعة والنشر
بيروت - لبنان

احمد سعيد محمدية

عشرون
رحلة في القارة السودانية

دار الصيّاد
للصحافة والطباعة والنشر
بيروت - لبنان

تمهيد

لم اتعرف على السودان ، الوطن والارض والشعب ، الا منذ سنتين فقط ، وقد كنت قبل ذلك اجهل حقيقة وجه وقلب هذا البلد ، تفاصيل ملامحه . اصالة معدنه . نبل نخوته . وصدق انتمائه العربي .

كنت قد نزلت السودان ايام مؤتمر القمة ، وكنت اكاد ان استغرب لماذا اختارت الامة العربية السودان موقعا لالتقائها في حين ان السودان — في تصوري — طرف قصي من الجسد العربي يكاد الدم القومي الا يصله .

وفي الخرطوم انقلبت الصورة في ذهني ... صورة الاستغراب ، وصورة الجهل ، فقد وصلت الى الحقيقة القائلة ان الطرف القصي يستبسل عبر الزمن — ماضيا وحاضرا ومستقبلا — ليحتفظ بصلة الدم ، وانه يقاوم حتى يبقى ترس دفاع قوي عن الجسد ، فقد رايت ان ابناء الخرطوم أولا اصحاب صلة صميمة بالتيارات الفكرية والسياسية السائدة في المنطقة العربية ، وانهم امتداد لهذه التيارات ، ورايت ان القبيلة السودانية وابن الريف السوداني اكثر صلة بالروح العربية شهامة وتقاليد وعرفا وسلوكا .

واحسست ان السودان — بعد هذا — طاقة بكر ، عقلية ونفسية وروحية ومادية ، لا بد ان تأخذ حقها في عملية التفاعل العربي من اجل صياغة مستقبل الوطن الكبير .

وهكذا بدات التصق نفسيا وروحيا بالسودان ، وبدات احاول ان ادرسه وان اتعرف مزيدا عليه غابة عربية ثرية وسط قارة الوطن .

وخلال اكثر من عشرين زيارة غير قصيرة جئت فيها السودان كنت اشعر ان هذا البلد لوحة عظيمة غنية بالالوان ، وهي لوحة متسعة تحتل رقعة مساحتها مليون ميل مربع ، خصبة بانواع الرجال ، خصبة بالعادات والتقاليد ، خصبة بالانتاج ، خصبة بكل صور الطبيعة والحياة .

وشعرت ان السودان ليس وطنا عاديا ، وشعرت انه وطن مجهول بالنسبة لنا نحن المؤمنين بوحدة التاريخ العربي حاضرا ومصيرا ، شعرت انه قارة عظيمة — وليس غابة فقط — وانه بحاجة الى من يحاول

المساهمة في اكتشافه : صحراء محشودة بالقبائل ، وريف ينتظم في كل بقعة من بقاعه اصحاب الزنود المنتجة ، وجبل يعانق الضباب ويعطي السماء عطره ، وشاطىء تخفق عليه موجات الحياة ، وغابة خضراء فيها الحلم والسحر وبخور الجمال .

وبعد أن اصبحت اعرف هذا البلد كمراقب عربي فسحت له الحياة فرصة التعرف على اجزاء الوطن العربي كله ، اخذت اجيء السودان وكأنني اذهب الى ارض الوطن — موطن الراس — لا بل انني قد فكرت ان اعيش في السودان ، فانا من اولئك الذين حلت عليهم لعنة النفي الابدي، لاجئين من حيفا — نسمع كل يوم ان الارض العربية وطن لكل امة العرب ونحس في كل لحظة ان الكلام شيء والواقع والفعل شيء آخر .

وبدأت امام الاحساس الفاجع المستمر احاول ان استعيض بالسودان وطنا نفسيا لي عن وطن ليس لي الا ان احلم به مع المعذبين كل صبح ومساء ....

وعلى هذا بدا اهتمامي ينمو ، وبدأت اعرف عن السودان ما يعرفه ابن الوطن الدارس فيه : طوائفه وقبائله ، ماضيه وحاضره ، رجاله وصعاليكه ، احزانه ومطامحه ، جوانب الظلمة فيه ومنابع النور منه ، نخوة الرجال وشهامة المعاملة ، صدق السلوك وطيب الروح .

وكان بعد كل هذا ان اقول ما اعرف — ولو كان قليلا — وان اجمع ذلك في صفحات ، وقدفعلت ،الا ان ما جمعته بقي متشرذما وغير منتظم .

وكان ان اجتمعت بصديق مؤرخ يعرف انني اقطع الارض العربية كل شهر طولا وعرضا ، وانني بت اعرف عن اطراف هذا الوطن ما لم تسهل الفرصة لكثير غيري ان يعرفوه وقد سمع مني هذا الصديق شيئا عن اليمن وشيئا آخر عن جمهورية جنوب اليمن الشعبية الفتية ، وكان هذا الصديق قد قرا لي ايضا شيئا مما كتبت عن رحلاتي ، وقد استوقفني مرة وهو يستمع الي بحس الكاتب ، وسألني : لماذا لا تجمع ما تعرف في دفتي كتاب ، ثم حثني ان اجلس في مكتبي شهرا ونصف شهر حتى اكتب كتابا عن اليمن واخر عن السودان . ولقد حاولت ان اقتنع بما حفزني الصديق عليه ولكنني لم افعل فقدوعيت انني عندما كنت اسافر لم اكن افعل ذلك بغرض تأليفكتاب ، ولذلك لم اجمع مرة من المرات مادة تكفي لكتاب يتميز بصدق المعلومات وشمولها واتساعها وعمقها .

كنت باستمرار ارقب الاحداث عن السطح واحاول بين حين وآخر ان ادخل عالم الوطن الداخلي وما وراء الحدث المباشر ، ولكنني لم افعل ذلك بتوفيق ، ذلك ان الاحداث كانت تنقلني سريعا من ارض عربية الى اخرى .

ولكن السودان ــ ذلك الوطن الذي شكل في نفسي نموذجا للارض الطيبة . والذي استطعت ان اعايش اهله كما ينبغي لكاتب يريد ان ينقل صورة شعب بامانة ــ قد استطعت ان اذهب اليه مرات عديدة وانا اتخذ وسيلة اخرى في جمع المعلومات والمراقبة والمعاينة والتعايش والدراسة والسماع والاطلاع هي وسيلة الرجل الذي ازاء مهمة . ولا اعني ــ مع ما اذكر ــ ان هذا العمل البسيط يتميز بمنهج علمي ، ولا اعني انني استطعت به ان ابحث قضية معينة من القضايا التي يمكن ان تشكل دراسة . وانما استطيع ان اقول ان هذا العمل هو انطباع عام ، حاول ان يكون صورة وافية وفية عن الوطن السوداني .

واود ان اقول انني كنت من اولئك الذين جالسوا عباس العقاد في ندوته كل جمعة صباحا ــ ايام عشت سنوات غنية من العمر في مصر ــ وانه قد الصق بي كلمات قالها اكثر من مرة عن خبرة ودراية ، وهي ان الكاتب الذي يريد ان يكون امينا لا بد ان يحب الموضوع الذي يريد ان يكتب عنه ؛ ولا بد ان تكون عواطفه مع هذا الموضوع رجلا كان او وطنا او قضية .

وانني اشعر الان انني احب السودان كما يحب الوطني المخلص ارضه وانني أعرف ما يمكن قوله عن السودان ــ ولو كان قليلا ــ ولذا وامام ما ذكرت انقل للمواطن العربي انطباعاتي عن السودان وانا اسأله المعذرة ان كنت رايت السودان مشرقا اخضر متوهجا بالبسالة والشجاعة وفضيلة الصدق . ولست انكر مع هذا ــ ان ما اردده عن السودان ليس الا شيئا شبيها بصلاة الغزل ، ولست اعرف وانا اقول هذه الكلمات كم يستطيع الانسان ان يكون موضوعيا عندما يحب ، ولكنني اقول بمنتهى المكاشفة ان ما اذكره عن هذا الوطن اعتقد انه حق وصدق وانني لا الزم عاطفتي الا بما تحب .

احمد سعيد محمدية

بيروت في ٢١ ــ ٢ ــ ١٩٦٩

دار الصياد ــ الحازمية

في العَاصِمَة المثلثة

عندما تتسلق الطائرة بك السماء من ضاحية الامتداد في الخرطوم وتبدأ العاصمة المثلثة تتراءى لك كالحلم حقلا أخضر رحبا ، فان قلبك – ساعتئذ – لا بد ان يخفق بكل مشاعر الحب والود والحنين ، ولا بد ان تبدأ عيناك صلاة وداع خصبة للمدينة التي تحب بقلبها الابيض الكريم.

وستذكر – والضباب قد بدأ يحجب الطائرة ويلفها بمنديل ابيض كبير – كيف انك نزلت السودان وانت تجهله الجهل كله ، ثم كيف عقدت صداقات حميمة مع شعب سهل المعشر ، وكيف ان عينيك قد اخذتا تتصفح صور الحياة ، تستعذب رؤية الناس الطيبين ، وكيف انك قد استذوقت طبيعة حياة عربية تختلف عما رايت من قبل .

انك هنا في الخرطوم تشهد صورة الانسان كما تحب من اعماقك، اي انك تشهد نخوة النبل ، وشهامة التقليد ، وروح العرب ، وفروسية الرجال .

انهم هنا يحملون اليك الماضي العربي التليد المجيد ، الذي قرات عنه وسمعت به ولم تره ... انك هنا تشهده حيا في السلوك : نقاءا في الاخلاق، وديموقراطية في الحياة ، وصفاءا في القلوب ، وانك لتفرح ان تجد رقعة من الوطن العربي حفظ لها الله قلبها نقيا طفلا ... لم تشوه احداث السياسة النفس ، ولم تخرب مدنية العصر الحاضر ... بقي الجميع – في المدينة والريف – اقرب الخلق الى معدن الانسان المثالي .. الذي نطمح ان نكون مثله ، ونرغب الرغبة كلها في ان نحياه – وان كانت الرغبة كامنة في لا وعينا احيانا – .

والخرطوم بعد هذا سهلة الدرب ... انها مدينة منبسطة مثل انسانها ، افقية الامتداد ، متصلة عبر جسر « بام درمان » العاصمة الوطنية الشعبية ، وعبر جسر)خر– بخرطوم بحري –حيثتتشكل من المدن الثلاث مدينة كبرى يطلقون عليها العاصمة المثلثة ...

واسم الخرطوم اسمه شبه ، فالارض التي قامت عليها الخرطوم تشبه راس الفيل ، ويشبه النيل الابيض والازرق بعد التقائهما خرطوم الفيل ، وقد ميزها هذا الموقع بطيب المنظر ، وخضرته ، فالتقاء الامواه الزرقاء بالبيضاء يشكل طرافة نادرة ، خاصة وان تدافع النهرين منفصلين يجعل مياه النهر الواحد الموحد محددة اللونين لمسافة بعيدة موغلة .

وقد وجدت الخرطوم كقرية فبلدة فمدينة بالتتابع وكان اول مرة يقام بيت فيها في القرن السادس عشر الميلادي ، حيث جاء جزيرة توتي – التي تقع عند شواطىء الخرطوم – جماعة من قبيلة « المحس » وجعلوها مقرا وكان ذلك في عام ١٩٦١ ، وكان اول النازحين وزعيمهم

الشيخ « ارباب العقائد » ، الفقيه الذي كان يحاول شق طريقة خاصة في الاسلام ... بنى بيتا واقام به ، ثم شرع تدريس الفقه فالتأم الناس من حوله شاهدين له بالعلم والفضل — عند الله — متحببين اليه البقاء ، فاختاروا نفس الارض ونفس الموقع ، واقاموا بيوتهم عند بيت الرجل الولي — عشيق الله — المعروف « بارباب العقائد » اي الرائد الكبير من رواد العقيدة .

وعلى هذا فالخرطوم ليست مدينة عريقة قديمة ، فهي من حيث العمر لا تطاول القاهرة ، وقد بلغت هذا العام عيدها الالفي ، ولا تستطيع الوقوف جنب دمشق او القدس وكل منهما قد ضربت عميقا في ارض التاريخ . انما الخرطوم — مع هذه الحداثة — لا تبدو مدينة هجينة ذلك انها استطاعت ان تنقل ارثَ الماضي وعراقته من خلال عنصر البشر ، خاصة اذا تذكر الراحل اليها ان « ام درمان » العاصمة الوطنية جزء منها — عاصمة مثلثة — ذلك ان « ام درمان » وهي القديمة من حيث العمر ، والعتيقة من حيث المذاق ، والغنية بروح الماضي رائحة ونفحا ، هي جزء من الخرطوم او هما جزءان يكمل الواحد منهما الاخر .

وحداثة الخرطوم لا تبدو في منشأها فقط ، ذلك ان هذا المنشأ من حيثَ التسلسل الزمني مطعون فيه ، فلقد كان للخرطوم بداية حقيقية للنمو والتعاظم وتمثيل دور المدينة فالعاصمة الرائدة سنة ١٨٨٥ في شهر يناير ، وذلك عندما بدات هذه المدينة حياتها الجديدة باحتفال صغير جرى عند اطلال قصر الحكمدارية المتهدم مع صلاة تذكارية اقيمت على روح الجنرال « غوردون » الذي قتل في ذلك الموضع يوم استولى انصار الله من اتباع الامام المهدي الكبير على المدينة ..

في ذلك العام وبعد هذا الاحتفال الذي ادى فيه الجنود الانكليز التحية مع اورطة من الجهادية السودانية بدات الخرطوم تسترد موقعها، وبدات حياتها ، بعد تعطل زمني طويل ، وبدأ كتشنر — الحاكم الانكليزي— للسودان انذاكَ يضع الخطة لنمو المدينة يعاونه في ذلكَ فريق من المهندسين .

ولعل من الايام التي تذكر عن الخرطوم الايام التي ابطلها كمدينة وعاصمة — المهدي الكبير ، فلقد رأى بعد انتصاراته العسكرية واستيلائه على الخرطوم نفسها وقد كانت العاصمة ، ان يزيل صفتها كعاصمة — وقد فعل — وذلك لضمان تخليص البلاد من رواسب الحكم التركي ، فاتخذ بذلك « ام درمان » عاصمة ، وشجع الهجرة اليها . لهذا السبب ولاسباب اخرى سياسية وقبائلية .

وهنا وفي هذه الفترة بالذات اكتسبت ام درمان صفتها الوطنية الشعبية وازدهرت من خلال حركة العمران والتجارة ، وان يكن هذا الازدهار ليس على قواعد حديثة .

ولذلك كانت ردة فعل الانكليز عنيفة ، فعندما استعادوا هيبتهم العسكرية ، اصبح هدف كتشنر حاكمهم العسكري تأسيس مدينة عصرية ترد على صفة ام درمان وتضاهيها من حيث الحجم والتأثير والمفعول ، وقد تحقق له ذلك بالبداية ، ثم تحققت روح الفكرة فيما بعد ، من خلال الاصرار على اصطفاء المدينة عاصمة للبلاد ، فهي بهذه الصفة اصبحت محورا يدور الناس حوله ، او قطبا يجذب المهاجرين والراحلين ، والطماحين في حياة اكثر استقرارا واكثر مدنية .

وبعد فان الراحل لا ينبغي ان يمضي على الخرطوم وهو يطل عليها فقط اطلالة نفسية وتاريخية انما ينبغي له ان ينظر نظرة سياسية ، واخرى فلكلورية وثالثة سياحية حتى تقترب صورة المدينة المثلثة الكبيرة من ذهنه اكثر .

من طرف الخرطوم « وسط » يمثل القلب والروح والمعدن السوداني ، وهي بهذه التحديدات عقل السودان واسلوب تفكيره ونمط الحياة كلها فيه .

في الخرطوم تشهد الظاهرة الديموقراطية الحقيقية التي تصفع بصدقها زيف الديموقراطية الحديثة ، ان الشعب هنا يختلف اختلافات سياسية حادة ، وتجد التطرف السياسي بين المثقفين قد بلغ ذروته عندما تعرف ان جمهورا كبيرا من مثقفي البلد من اهل اليسار الماركسي الملتزم ، وان جمهورا آخر — اقل عددا وعدة — من الاخوان المسلمين ، ولكن هذا التطرف في العقيدة والايمان — في الجانبين لا يؤدي الى صدام ، لا بل ان الماركسي يجلس مع الاخوان المسلمين جلسات فكرية وجلسات مودة ويتزاور الطرفان ، حتى اذا قابل السيد عبد الخالق محجوب زعيم اليسار الماركسي رجلا كالصادق المهدي احد اركان اليمين فان الاثنين يأخذان بعضهما في الحضن ، وهما عندما يفعلان ذلك تسقط كل اعتبارات الزيف المدني السياسي المعروف ويكون لقاؤهما في لحظته صادقا .

والحكومة في السودان تمثل الوسط المتفتح ، ولكنها لم تضرب اليمين المتطرف كما انها لم تضرب اليسار ، وشخصيا لم اتعرف على زعماء اليسار السودانيين الا في جلسات الانس في بيت الرئيس محمد احمد محجوب ، وكانت هذه الجلسات مفتوحة يتسامر فيها النقيضان ويتحاوران .

واذا كانت هذه هي بعض مظاهر الديموقراطية ، فان اكبر مظاهرها هي قدرة زعماء البلد مجتمعين على العيش بلا حرس او عساكر او دبابات ... ان المواطن يعرف حقه كاملا في نقد الحكومة ، ولكنه في نفس الوقت يعرف ان الاختلاف السياسي لا ينبغي ان يؤدي الى خلاف عاطفي او صدام دموي ... ان العقيدة نضال سلمي ، والوصول الى الحكم والهدف نضال يومي ولكن ليس على حساب مصادرة حريات الاخرين ، ولا على حساب حيواتهم .

وبهذا تجد فردا عاديا بسيطا او موظفا في الدرجة السادسة صديقا لرئيس مجلس السيادة او لرئيس مجلس الوزراء ، وهو لا يغادر منزله مهما كان الوضع ومهما كانت المهام ، وتجد وزيرا ساعة الافطار يجلس على الارض على رصيف عادي يتناول افطاره مع البسطاء من الناس .

ولقد حاولت — شخصيا — تحليل هذه الظاهرة ، وحاولت في البداية ردها الى المستوى الحضري لشعب السودان ، ولكنني اخطأت التقدير والنسبة ، عندما تذكرت ان مجتمعات عربية تقع في نهاية السلم الحضاري العربي ومع هذا تجد الحاكم فيها غير ما تجده في السودان ، وتجد العلائق البشرية علائق طبقية مبنية على الرتبة السياسية او العسكرية او الدينية . وهذا بخلاف السودان الذي يتساوى فيه القائد بالمقود ، والزعيم بالمواطن ، وشيخ القبيلة الكبير برجلها البسيط ، ورئيس الدولة بالموظف العادي .

وهذا الشعب الذي يمثل نمطا عظيما في العلاقات والاخلاق والعادات الفاضلة لا بد ان يكون شعبا غنيا بروحه ، طروبا بقلبه ، مزهوا بفضائله ، مقدسا لتقاليده المتواترة التي تمثل هذه الشخصية وتميزها .

وحتى تعرف ذلك لا بد ان تسلك اولا دروب الخرطوم ، وان تدخل احياءها الراقية ، واحياءها الشعبية وان تتوقف في خرطوم بحرى وام درمان لتعرف الصورة الاجمالية للعاصمة المثلثة .

وقد تفعل ذلك وترى الرجال الذين تيسرت لك فرصة التعرف بهم ، وتقترب من واحد منهم فتلج صدره ، وتشهد عواطفه السهلة ، وتجوب في قلبه جولة واسعة ، لا بد ان الفرد يجوب ويجول معك في قلبه مفصحا عن كل مشاعره بلا عقد .

وتدرك — هنا — بسرعة كم تلتصق عواطف الفرد بعواطف الجماعة وخاصة عندما تتحدث الى الذي تعرفت عليه فتشهد فيه روح هذه الجماعة وفكرها وتراثها :

انك ترى فيه خصال العرب ندية ، وكأنك اتيت بها بالامس القريب من الصحراء ... وفاءا في العاطفة . لا حدود له ، وانفعالا في التفكير يصل احيانا مستوى الصراخ ، وكرما في اليد حتى تظن من امامك ثريا كبيرا — وهو ليس كذلك — وطلاقة باللسان حتى لتسمع منه كل شيء عن كل شيء ، وحدة في الغضب وعنف فيه — اذا غضب — وحصيلة ذلك سهولة في المعشر كأنك التقيت بهذا الرجل من عشرين سنة ونيف .

انهيندفع في حياته كما يندفع النيل العظيم الدفاق من امامك عند شواطيء الخرطوم وام درمان ، انه نيل فطري لم تحجب قوته السدود ولم تضيق رحابته الاقنية .

سيأتي اليك هذا الرجل ابن الخرطوم او ام درمان ، عندما تلتقي به ، طويل القامة ، سامق الفرع ، منتصب العود معمم الرأس بالعمامة البيضاء مجلببا بالجلباب الفضفاض الابيض ... لونه يميل الى السواد واحيانا الى السمرة العربية ، وهواللون الغالب — فيبتسم لك ابتسامة واسعة ، ويرحب بك ترحيبا شديدا ، ويردد الترحيب مرات كثيرة وبفيض كبير من المشاعر الصادقة ، ويختم الترحيب بقوله « شرفت البلد » .

واذا دخلت بيت الانسان السوداني وكان الوقت صبحا فان وليمة من نوع زخم لا تقوى عليها في العشاء او الظهيرة ستقدم اليك ... سيقدم اليك السمك بوفرة مشويا ومقليا ، وسيقدم اليك حساء العدس الاصفر مكثفا دسما ، وسيقدم اليك الفتفت والمرارة والشطة وانواع كثيرة من الحوادق .

وسوف يزيد عليك السوداني ابن الخرطوم خاصة — فكيف بابن الريف او البادية !! — الكبة منلحم السمك والفول المدمس وحساء النيئة ، وقد نظفت وبللت بالحامضوالشطة ، وستعرف ان المرارة هي الكبدة وقد غمست هي والبصل بالحامض والشطة الحارقة ايضا .

وسوف يزيد عليك السوداني — ابن الخرطوم خاصة — فكيف بابن الريف او البادية !! الكبة من لحم السمك والفول المدمس وحساء
الفول السوداني او حساء الفستق كما نسميه نحن ... وسوف يردد امامك وهو يقدم لك كل هذا الزاد انه لم يصنع ما يمليه عليه الواجب ، وسيعتذر — او يكاد — اليك لانه لم يذبح عجلا او حملا او جملا .

واذا آنسك الليل وزرت بيتا يحاول ان يبتهج للحياة بالتعبير السوداني فستجد مطربا يوقع علىعوده ، وهو يشدو لك شعرا اصيلا، وسوف تجد ان كل من في البيت يطرب للنغم ويطرب للصوت ويطرب معهما للشعر الاصيل العامودي .

وقد يستبد الطرب بالحاضرين وغالبا ما يتم ذلك فينهض الواحد منهم ـ وهم على اية حال من الجنس الخشن ، ويتجه نحو المطرب رافعا يده هازا قبضة مرخية ، مرددا في الهمس او العلن كلمة ابشر : ان هذه الحركة هي تحية المطرب التي يتجه بها رب البيت في العادة اولا نحو انيس الجلسة ومطربها ، ثم يتجه بها الى الحاضرين فردا فردا فينهض الجالس منهم ويبادله التحية بمثلها ، والاثنان يهتزان طربا للنغم ، ولنشوة الخمر ولانس الجلسة ، ولاحساس الجماعة بالتوحد والذوبان في اطار وحدة النغم.

وقد تحس انك في هذه الجلسة تحيا اياما من ليالي الماضي الاندلسية او العباسية... ولكن هذه الليلة ينقصها للاسف عنصر المرأة واذا وجدت في بعض البيوت وفي جلسة الانس هذه فان الامر يتم بتكتم شديد وفي نطاق ضيق محصور على اقرب الخلان .

ولا ادري ان كانت هذه البهجة السودانية هي طابع الحياة كلها ، ولكنني اظن ان الكريم طروب ـ كما يقول المثل العربي القديم ، واظن ان هذه البهجة والكرم تعبر عن نفسها اسلوبا للحياة السودانية خلال الاحتفالات الشخصية التي يبالغ في مظاهرها خلال الاعياد والمواسم ، ولا ادري اية مناسبة كانت عندما كنت امر في ساحة قريبة من سوق الخضار في الخرطوم ، وسمعت ضرب الطبل عنيفا ، ورأيت الناس محتشدين فاقتربت وصوت المزمار يرتل النغم العربي الممتزج : الذي تحس فيه فرحة وحزنا ، وشدوا ونواحا فرأيت انهماكا في صنع الطرب : نغما ورقصا وايقاع طبل ، وكان اليوم على ما اذكر يوما عاديا من ايام الاسبوع ،وكان الوقت ظهرا ايضا ... ولم يكن ثمة عيد ديني او وطني .

اذن هذا الشعب في الخرطوم المنبسطة السهلة شعب طروب صادق الاحساس ، وصدق حسه ليس جديدا عليه ، فالذين يدخلون دار التاريخ الرحبة يجدون شعب السودان يعبر مراحل الزمن مثل اورطة تحمل السيف وهي تهزج .

ام درمَان .. أنفاس عَريقـة

هل يمكن ان نخرج من اطار العاصمة المثلثة دون ان نتوقف عند بعض الملامح التي تكمل شخصيتها ؟ لو فعلنا ذلك لاتهمنا الكثيرون بالنظرة القاصرة ، ولانكروا علينا ان نكون قد نزلنا ارض الوطن السوداني عشرين مرة ، ذلك ان الذي ينزل الخرطوم ويتذوق طعم السودان فيها لا بد من أن يستكمل الطعم الحادق فيها ، وما يمثل النكهة الخاصة لها .

واذا احببنا ان نجسم هذا الطعم صورة ما فاننا نقول ان الصورة تتمثل هنا في ام درمان التي مررنا عليها عرضا ونحن نحكي شيئا عن الخرطوم :

هنا في « ام درمان » تحس روح السودان اكثر من اي بقعة في العاصمة المثلثة .. انها مدينة تشهد لك اكثر بالنبع العربي الفياض في افريقيا روحا وزيا ، عادة وشكلا ، وتشهد لك بشخصية السودان اصالة وحرصا على التقليد .

وعندما تدخل ام درمان تحس تجانسها السوداني الصميم ، وتشعر ان الغريب فيها يبدو مثل حبة الزؤان السوداء وسط الحنطة البيضاء . ذلك ان اهلها كلهم من اولئك « الوسط » الذي يمثل حقيقة امتزاج العنصر العربي بالعنصر الافريقي ، وان الوافدين اليها — ضمن هذا الامتزاج الذي ولد من خلال تزاوج تاريخي طويل — يحسون هم ايضا بغربتهم عن ارض ليس فيها مظهر من مظاهر حياتهم ، وليس لهم فيها صورة من الصور التي شهدوها في الارض التي وفدوا منها .. انها الروح التي تنضح بالصيغة التي انتهى اليها انسان الوطن السوداني ، من خلال ارث طويل يحمل نضال الاجيال السودانية الصميم ، عبر زمن تم فيه تشكيل قلب وروح وعقل وارادة الانسان .

ولذلك — ومرة ثانية — ترفض ام درمان بمجتمعها المتجانس الغريب الوافد ، وترفض ما يجلبه من عادة ومظهر ، ولذلكَ لا يستوي حال هذا الوافد ، ولا يجد الارض من تحت اقدامه تثبت له ، وحتى هؤلاء الذين عبروا المرحلة السودانية الاصيلة من السودانيين انفسهم لا يستطيعون البقاء في ام درمان لان ام درمان ترفض الوافد حتى من الاحاسيس والمشاعر ، وتستهجن ان يكون — حتى السوداني — من غير الطينة الاصيلة التي جبلت وكونت بشكلها المحدد عبر التاريخ .

ولهذا ترى ان ذلك النفر السوداني الذي اشتد الوصل الروحي بينه وبين السودان الروح لا يرتضي العيش الا في تلك البقعة ، وخاصة نفر الفنانين الذين يصبح الوصلُ عندهم نوعا من العشق الوطني.

هنا في ام درمان ــ لهذا ــ ترى العمة الكبيرة والجلباب الابيض الفضفاض ــ وبالكاد ترى الزي الوافد الا عند اولئك العابرين في أرض البلد ، او عند اولئك الذين قضت عليهم حياتهم بتغيير الزي الوطني .. وحتى الطالبات لا يرون هنا الا بالزي الوطني .. الثوب الذي يلتف فيه العود الابنوسي ، والذي يمتد الى الراس الاجعد الفائح بالعطر السوداني الشعبي ، ولا تستطيع أن ترى بين الفتيات الطالبات في ام درمان ــ الا في ما ندر ــ من تخرج عن هذه القاعدة ، واذا فعلت بعضهن فانها تبقى على الراس تلك الطرحة البيضاء التي تحدث ذلك التفارق اللوني المبهج بين سواد اللون وبياض الزي .

وقد ترى البوليس السوداني في قبعته الفضفاضة في الخرطوم وخرطوم بحري ، ولكنك عندما تراه هنا في ام درمان تذكره جزءا منها ، وترى قامته الناحلة المشوقة ، وريش النعام المتطاير مع النسمة عن القبعة ، فلا تحس الا ان رجل البوليس هنا ايضا ابى الا ان يكون من طبيعة البلد شكلا وايماءة ومظهرا . ومثل هذا لا ينطبق على مظاهر البلدة السودانية الصميمة كلها ، ولهذا فان الاحساس العام الذي اوردته في مطلع هذه العجالة لا يختلف بكثير عن الاحساس الذي تخلفه النظرة والانطباعية لغيري من الوافدين ، والطارئين على البلد .

وتسأل بعد هذا كيف هي ام درمان ؟ ماهي بعض علاماتها المميزة ؟ ما هي القسمات الاخرى في وجهها العربي الافريقي الغالي ؟

ثمة مرجع صغير اعده الاستاذ مصطفى حامد الامين عن ام درمان ، وهو على ما يبدو من أهلها لانه فصل هذه المدينة تفصيلا جغرافيا واحصائيا ، وان لم يتوقف عند روح البلد وهي اميز ميزاتها .

وما يعنينا هنا قوله .. ان « ام درمان كانت قرية صغيرة تحوطها الغابات المليئة بالوحوش من كل جانب . حتى ان سكان توتي ــ وهي جزيرة مطلة على الخرطوم وعلى ام درمان ــ كانوا يقصدونها بالمراكب لجلب الحطب من غاباتها ولصيد الارانب والغزلان المارحة في داخلها » .

ويقول : «ان امدرمان هذه المدينة الواسعة الاطراف لا يزيد عمرها عن خمسة وثمانين عاما .. فقد بناها الامام المهدي في المدة ما بين سقوط الخرطوم في يناير ١٨٨٥ ، وبين وفاته في يونيو من نفس العام » .

وما ورد هنا يؤكد حقيقة تاريخيةهي ان ام درمان مدينة مستحدثة، وانها طفلة اذ قيس عمرها بعمر المدن المعمرة ، وان اهلها ليسوا من الذين ارتضوا حياة المدينة والمدنية عصرا تلو عصر ، وانما هي ذلك الجماع الريفي الذي انتقل من سبعين سنة من اعماق البادية ــ التي تقفل على صيفة نفسية وروحية ، ولا تقبل بالانفراط المدني فتتوزع الوجدان ، وتنهب العقل ــ وهذا هو سر بقائها فطرية القلب حريصة على الشخصية الصحيحة التي تشهدها ــ كما قلنا ــ في الانسان والمكان على حد سواء .

وتأكيدا لهذه الصفة وتفصيلا لبعض القسمات والملامح نقول :

التاريخ السوداني القريب المتسم بنبل البسالة ، ورجولة المقاومة ، والروح العربية المناضلة يسكن الان في ام درمان ،واذا لم يشهد المراقب والراحل الى ام درمان ذلك في ناس الحاضر فانه يستطيع ان يرى ذلك في منزل من منازل الماضي ، ونعني به منزل الخليفة عبدالله التعايشي .. ذلك الذي تحول الان الى موقف يرصد بقدر بسيط حياة الجهاد القومي تحت راية الدين ، ويؤرخ بالصورة والاثر والكلمة لفترة النضال الساخنة تلك التي انتصر فيها النفر القليل على النفر الكبير ايام الاستعمار الانجليزي وضده .

وام درمان ــ بعد هذا اربعة ارباع وكل ربع اربع حارات وهي ممتدة امتدادا افقيا تطرزها خمسون خلوة ــ وهي مدرسة على الطريقة السودانية الصحيحة ــ ناهيك عن دور العلم الاخرى .

وهي اسواق واسعة مكتظة حافلة بالبشر ، وعندما تقف فيها وتتجول في انحناءاتها تشهد انك امام النماذج الانسانية الغنية ، التي تصلح ان تمثل الاشخاص في الروايات الانسانية الكبرى .. « العربجية والباعة المتجولون ، والنساء المتسكعات ، والاطفال الذين بلا مدرسة وبلا عمل ، والاطفال الذين يرثون عن الاباء مهنة البيع ، والمتالة ، والتجار الكبار ــ الذين يسترون غناهم بوضاعة المتجر ــ ، والفعلة المسحوقون ، وباعة اللب ، والشحاذون ، وبعض المجاذيب ــ التائهين في حب الله ــ ، وباعة الطعام الرخيص مع الذباب ، وعمال البناء ، والاغبياء ،والفهلوية .. وكل الوان البشر الاخرى » .

وهنا نجد نوعا من العراء يكشف لك حقيقة الحياة ، ولكنك لا تريد عزلة فلسفية ، فأنت ترغب معي ان تدخل سوقا قد يرضيك من هذه الاسواق ، وهو سوق الابنوس والعاج وريش النعام وجلود التماسيح وجلود الثعابين .

هنا سوف تشهد بعض صيد الارض السودانية الذي لا تشهده في ارض عربية اخرى .. لانك هنا وحتى في ام درمان يجب ان تتذكر انك في اعماق القارة الافريقية وانك اذا طرت ساعة وبعض الساعة فسوف تشهد الغابات الغزيرة وتكثر فيها قطعان الاسود ، والنمور الرابضة على رؤوس الشجر ، واسراب الطير ، وفصائل النعام المتراكض ، والزرافات والافيال التي لا يحصرها رقم ، ولا تحصرها عين وآلاف من الزراف يختال بنعومة وينساب بين الاشجار كالسحر .

في سوق العاج هذا سوف تجد شيئا من كل هـذه الحيوانات : راس النمر الذي تحدق عيناه في عينيك وهو ميت ، وجلده الذي يساوي الوف الليرات وجلد اسد — ولكنه رخيص رخصا غير عادي — وسوف تجد العاج اطنانا .

وهنا العاج له اهل صنعة ، وهم حاذقون ، وانت لا تجدهم في كل السودان الا في هذا السوق .. يزنون العاج — انياب الفيل — ثم ينحتونه بدقة ويصنعون منه حيوانات الغاب المتوفرة عندهم ، واشياء اخرى كثيرة .

وتجد — هنا — الابنوس خشبا ثقيلا كالحديد ، وصقيلا كالذهب ، ونفيسا كالاشياء الكريمة ، ومطعما بطبيعته باللون الاسود ، او اسود ومطعم بالابيض .. ومنه يصنعون الفيلة ، ونماذج المقاتلين ، ورؤوس الرجال ذات الملامح المختلفة ، والعصي التي لا تنكسر ولا تهترىء .

وتجد هنا وبكميات خيالية جلود التماسيح — رخيصة باثمان لا تصدق — وجلود الثعابين تصنع منها الحذاء والشنطة والحقيبة والحزام ، ويذهلك بعضها الذي يبلغ طوله عشرة امتار او ما يزيد ، وعرضه متر احيانا ، اي ثعبان يا ترى هذا الثعبان الذي له هذا الجلد القاسي الطويل العريض الذي يخيف من لا يخاف .

ولكن — مع كل ما ذكرنا ليست هذه هي ام درمان .. انها اكبر مما ذكرنا واوسع ، وان لها في دار التاريخ مكانا يراه بحجمه الطبيعي كل اولئك الذين يدخلون هذه الدار .

الم اقل ان السودان قارة رحبة ، موغلة في الاتساع ، ملونة بالالوان المتناقضة ، تصلح بذاتها — من حيث الحجم — ان تكون موطنا لامة كبرى عريقة .

الم اقل ان « السودان » غابة كثيفة الاشجار ، مبهمة الصورة في بعض الجوانب ، وانه بحاجة الى الرحالة والرسام والمصور ، والشاعر المبدع ، والروائي الفذ ، والنحات الكبير ، وانه بحاجة الى العالم الدؤوب الصامت ، والمستكشف المجاهد ، وانه بحاجة الى كل هؤلاء في وقت واحد وكل الكفاءات الفنية والفكرية الاخرى .

وحتى لا نذهب بعيدا نقول اننا بصدد الاغتراب بضعة ايام في جنوب السودان — مساحته ٣٥٠ الف ميل مربع — واننا في رحلة الاغتراب هذه سندخل بعض اجزاء تلك الغابة السودانية الثرية ، او قل جزءا من هذه القارة الزاهية اللون ، الخصبة بالانسان ، الغنية الشخصية .

وقبل ان ندخل ذلك العالم الجديد علينا ، لا بد من ان نقول ان الكفاءات الفنية السودانية والمستوردة هي ما نحن بحاجة اليه حتى تكتشف ادغال الانسان والارض والحيوان ، واذا ما توفر لنا شيء مما نطلب فان محاولتنا الفردية هنا ستكون في غاية التواضع وهي كذلك .

ولا ادري اي الطرق ستنهج من الخرطوم العاصمة الى مديريات الجنوب ، وطالما الخيار بيدنا فاننا نؤثر ان نرحل عن طريق بحر النيل ، وان نرجع عن طريق القطار ، ذلك ان الطائرة توجز الاشياء ، وتضيع ملامح الارض ، حتى لتظهر اليك الاشياء عادية ، وهي ليست كذلك ، وحتى لتبدو اليك احيانا العواصم وكانها الفيافي ، والحقول وكانها الصحاري . الا ان الرحلة هذه الى ارض الجنوب لا تمضي — طالما اخترت النهر المقدس طريقا دون وقفة عند ضفافه متاملا مستذكرا شاهدا كيف تمضي رجل هذا النهر الازلية عبر الزمان والمكان .

عَبرَ النهرِ المقدّس

في النيل تشهد اولا الطبيعة الخصبة الفطرية ، وتشهد جهد الانسان على الضفاف ، وترى كيف يمشي هذا النهر عميقا هادئا ، وتراه كيف يأتيك من اغوار افريقيا السحيقة الى رشيد ودمياط على الشاطيء المصري — لو اكملت الرحلة — فتشهد له انه الشاهد التاريخي للحياة ، بل هو صانع ذلك التاريخ على ضفافه ، وتشهد له انه الشهيد المنتهب ، وتشهد له ايضا انه المعبود او المجهول المخيف ، او تراه مع هذا وذاك الانيس الذي يسلو المتعبين والذين غفلت عين الحياة الطيبة عنهم .

وعندما تركب ظهر النيل في ذلك الفندق العائم ، وتشرع في السير الطويل الساكن ، والامواه النيلية تزفر لك حينا بعد حين ترتيلة موقعة النغم ، فانكَ تبدأ نظرات الفحص والاستقصاء ، ولا ترضى ان تمضي بك الرحلة الطويلة الهادئة دون ان تشهد على تلك الضفاف ملامح التاريخ ، وان تطبع في ذاكرتكَ جغرافية سير ذلك النهر ، ودون ان تلامس عيناك حيوان وانسان ذلك النهر ملامسة شفافة .

وانت — الان فيما تتجه الى الجنوب — ينبغي ان تتذكر انك لا تركب ظهر النيل كله ، وانما تركب ظهر النيل الابيض وحده ، وان كنت تعلم ان النيلين — الابيض والازرق يلتقيان عند مدينة الخرطوم — بعد ان قطع الاول رحلة من وسط افريقيا آتيا من تلكَ البحيرات التي سموها باسماء اعجمية — بحيرات فكتوريا ونيانزا عند خط الاستواء ، فيما يأتي النيل الازرق من الارض الحبشية ومن تلك البحيرة المسماة « تسانا » .

وتعرف — وهذا الفندق العائم يذكركَ بعد بانتمائك الى عالمِمدني ، فيما هو يتجه بك الى ضفاف موحشة غائرة في قلب المجهول — ان ثمة رقم عجيب يشكله هو الرقم الذي يمثل طول النيل من منبعه الى مصبه . انه ٣٣٣٣ ميلا بالتحديد ، وانه بهذا الرقم قد بلغ طولا اقصى ما يتمناه نهر لنفسه ، ما عدا « الامازون » في امريكا الجنوبية ، رغم ان نيلنا مميز عن الامازون بالشهرة التاريخية ، وبالعراقة وبان فجر الحضارة الانسانية قد اشرق على ضفافه .

وفيما يتهادى بك هذا الفندق العائم تلتفت العين بك الى هــذا المدى الرحب ، او بلغة التحديد الى هذا العرض الذي يشكل وسط النيل، فترى ان النيل الابيض الذي انت فوقه يساوي هنا النيل في مصر متحدا ، لا بل انك هنا قد ترى النيل الابيض منفردا اغزر ماءا وارحب مدى ،واسرع تدفقا من نيل مصر ، وتسال فتعرف انك الان في موسم الفيض ، وانـــك وان كنت في صيف ــ بلادك بر الشام ــ الا انك الان في شتاء بــلادك الاخرى السودانية ، وانه في هذا الموسم يهطل المطر شديدا في هــذه

الارض ــ وسوف تشهده كلما تقدمت بك الرحلة اعنف واغــزر ــ وان الجبال الافريقية تقذف بافواهها الى هذا النهر فيشتد قوة ، ويتسع عرضا.

وتقول في نفسك او امام الذين يعرفون ، ولكن الفيض يصيب نيل مصر ايضا مثلما ياتي الفيض في هذا النيل الابيض .

وتجاب : ان النيل هنا ما زال بكرا كالارض التي لم تستثمر ... لم تسرق الشمس الماء بخارا يتبدد في الاجواء ، كما ان الاقنية لم تستنزف دم هذا النهر ، ولم يرتشف بعد البشر قدرا آخر من امواه النهر .

انك هنا تشهد النيل ــ او قل جزءا منه ــ وهو بعد منبثق مــن منابع العطاء الازلية ، انه هنا العذراء الصاخبة الفتنة ، الحيوية الشباب، التي لم تذق جمالها لرجل ذكر بعد ، متدفقة بفطرة الانوثة ، جياشة بروح اذا اعطت غمرت ووفت واشبعت .

وترى والفيض هنا هو الذي يحملك على ظهر هذا الفنـــدق العائم ... ان الماء فقد صفاءه ــ وان لم يفقد طهره ــ وانه قد اخذ لون الارض السمراء عن جانبيه وانه احيانا امتد واتسع حتى اتصل بالارض البعيدة حتى كدت الا ترى فاصلا بين الارض ومياه هذا النهر المقدس .. هنا تشمر النهر يعانق ذلك التراب الاسمر المعطاء ، وانه يمنحه من الخير الذي يحمل البركة والروعة ومقدرة الخلق .

وتعرف ان هذا النيل يجب ان يفيض كل سنة ، وانه اذا ما لــم يفض ويرتفع فيضه الى ٢٢ قدما فان مجاعة تنتظر اولئك الذين ارتضوه ابا لهم عبر التاريخ والزمن .

وتحس ان النيل ــ مع هذه الغزارة التي ترى ــ يمشي بك ببطء ، وتعاود النظر فتراه يتدفق كالسيل وانه يسير بسرعة تصل الان مع هذا الفيض الى ستة اميال في الساعة ، وانه اذا فترت همته ، وشح فيضه وسار الهوينا فانه يمشي بتلك السرعة المتوسطة البالغة ٣ اميال في الساعة .

اما انت والمركب تحملك عكس التيار فانك لا تجد السرعة التي تحب ، وستعلم ان الرحلة في الذهاب الى الجنوب سوف تأخذ منك عشرة ايام بخلاف العودة حيث ترجع مع التيار خلال اربعة ايام ، وهذا هو سر البطء الذي ترى .

وكلما اتجه بك هذا المركب في الاعماق الافريقية كلما بت في شوق اكبر لمعرفة المزيد عن هذا النهر ، فانت تعرف الان ان النيل الذي يحملك هو الابيض وانه قد سمي بهذا اللون لانه يتفارق في ايام الصحو عن لون النيل الازرق ، الذي هو اكثر عمقا واكثر مقدرة على جذب لون السماء اليه.

وتعرف ان هذا النهر من اقصى شماله الى اقصى جنوبه قد تدرجت فيه الشلالات ، وان شلال اسوان في اقصى الشمال اسمه ليس غريب عليك ، في حين ان ثمة شلالات لا ينبغي ان يسمى الذي يشق النيل ــ من شماله الى جنوبه ــ عنها ، وهي شلالات حلفا ، والحفك ،وشلالات « الادرمية » في بلاد الشايقية ، وشلال « وادي الحمار » ، واخرى صغيرة مثل « كعب العبد » و « ام حبوبة » و « الرخمة » ، و « رقبة الجمل » و « ابو سيال » و « ابو هشيم » وشلال « السبلوقة» بين « شندي » و « الخرطوم » وهو متحدر جدا .

وبينما يمضي هذا الفندق هادئا مقاوما لهذا التيار المنيف، ترتفع بين حين واخر الضفاف ، او تنتصب من امامك الجزر الرملية التي تجبر الفندق على الانحراف عن خط سيره ، وترى على تلك الضفاف الوانا من الصور الطبيعية والانسانية ، وتلحظ انك كلما اوغلت سيرا في الجنوب كلما اشتدت سمرة الارض وسمرة الانسان ، حتى اذا وصلت الاعماق التي تقصد في جوبا ، ،و ملكال فانك لن ترى الا الانسان الافريقي الخالص في افريقيته ، لونا وشكلا وطريقة حياة .

ولن تمضي بك الطريق دون ان تشهد انسانا او مجموعة . من البشر يعالجون النهر ليستخلصوا منه بعض حيوانه ، وستشهد في الاعماق الجنوبية تلك المطاردة الصعبة بين الانسان والتمساح ، وذلك الصراع بين البشر والحيوان ، وانتصار الانسان الضعيف على القوة الغبية .

ستری احیانا قطيعا من التماسيح خرجـــوا من النهر علـــى الشواطيء في رحلة استجمام قصيرة ، سيهزك المنظر خوفا وعجبا ، ولكن الفندق الشاهق يسري كالطود وانت مذهول بالذي تشهد ، مأخوذ بتلـك المعايشة الانية بين الوافد الطاريء ، وبين ابن النهر المقيم .

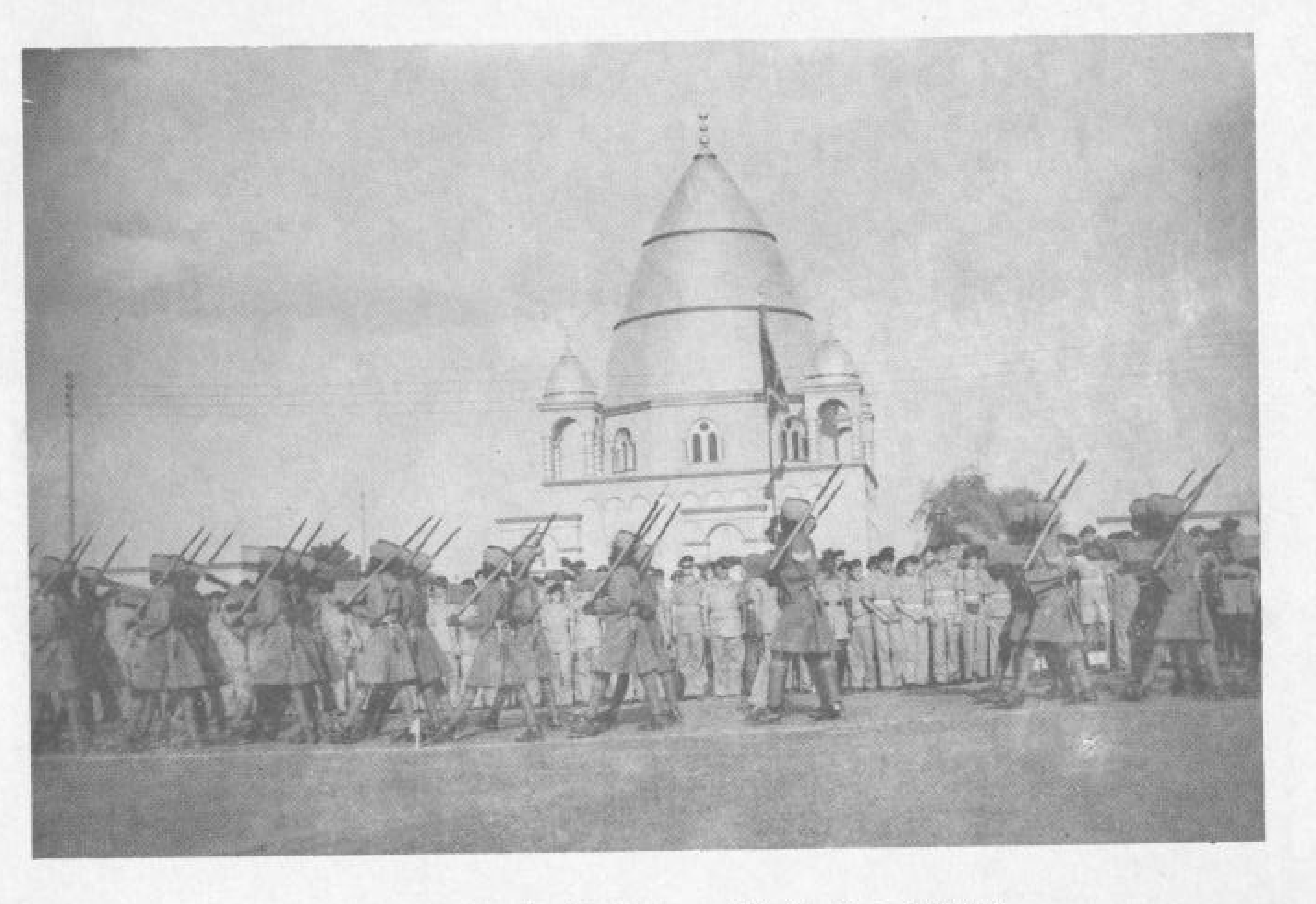
وسترى ذلك السمك الصغير العادي ، ثم ستشهد ذلك السمك الوحشي الكبير او فرس البحر كما يسمونه ضخما كالحوت غزير اللحم، كالخنزير ، عنيف الحركة ، قد يسحب مجموعة من الرجال ان لم يتدبروا امرهم بالحكمة والحيلة .

وقد يسعدك الحظ وانت تسير في الرحلة الطويلة القصيرة فترى قطعانا من الوحوش تقرب الضفاف في محاولة للشرب ، او ترى الريـــم على الجانب الرملي من الضفاف .

الا ان ما يلفت نظرك هنا الانسان الذي تنتقل معه بين البادية والريف والغابة والمدينة ايضا ، وتشهده في كل موقع مغاير عنه في الموقع الذي مضى ، وتحس ان الحضارة لا تستقيم على ارض واحدة بنفس القدر الذي استقامت فيه في ارض اخرى من بلاد واحدة ، والا فكيف يمكن لك ان تعرف معنى ان يصنع انسان على ضفة النيل مدينة فرعونية اشرق بها فجر الحضارة الانسانية ،وحضارة اسلامية اضاءت عصور الظلام ، وحضارة عربية وليدة بدات تلفت راس العالم نحوها .. كيف تشهد ذلك عبر الحاضر والماضي في نفس الوقت الذي تتدرج فيه هبوطا على سلم الحضارة كلمات اتجهت الى الاعماق الجنوبية .

وسيطربك ـــ مهما يكن الامر ـــ هذا التفارق ، او هذا الاختلاف البشري بين موقع وآخر ، وستحس معه انك تشهد العالم كله ـــ رغم ضيق الرقعة التي بها تتحرك ـــ على صورته الطبيعية غني الفكر والانتاج او ضعيف الحول ، قليل الطموح . وستقدر ان الامر لن يبقى كذلك ، وانه لا بد للحضارة في الشمال ان تزحف الى هذه الاعماق الجنوبية تحمل بشرى العلم وضوء العصر لتحقق ذلك التكافل الثقافي والمعنوي بين ابناء الوطن الواحد .

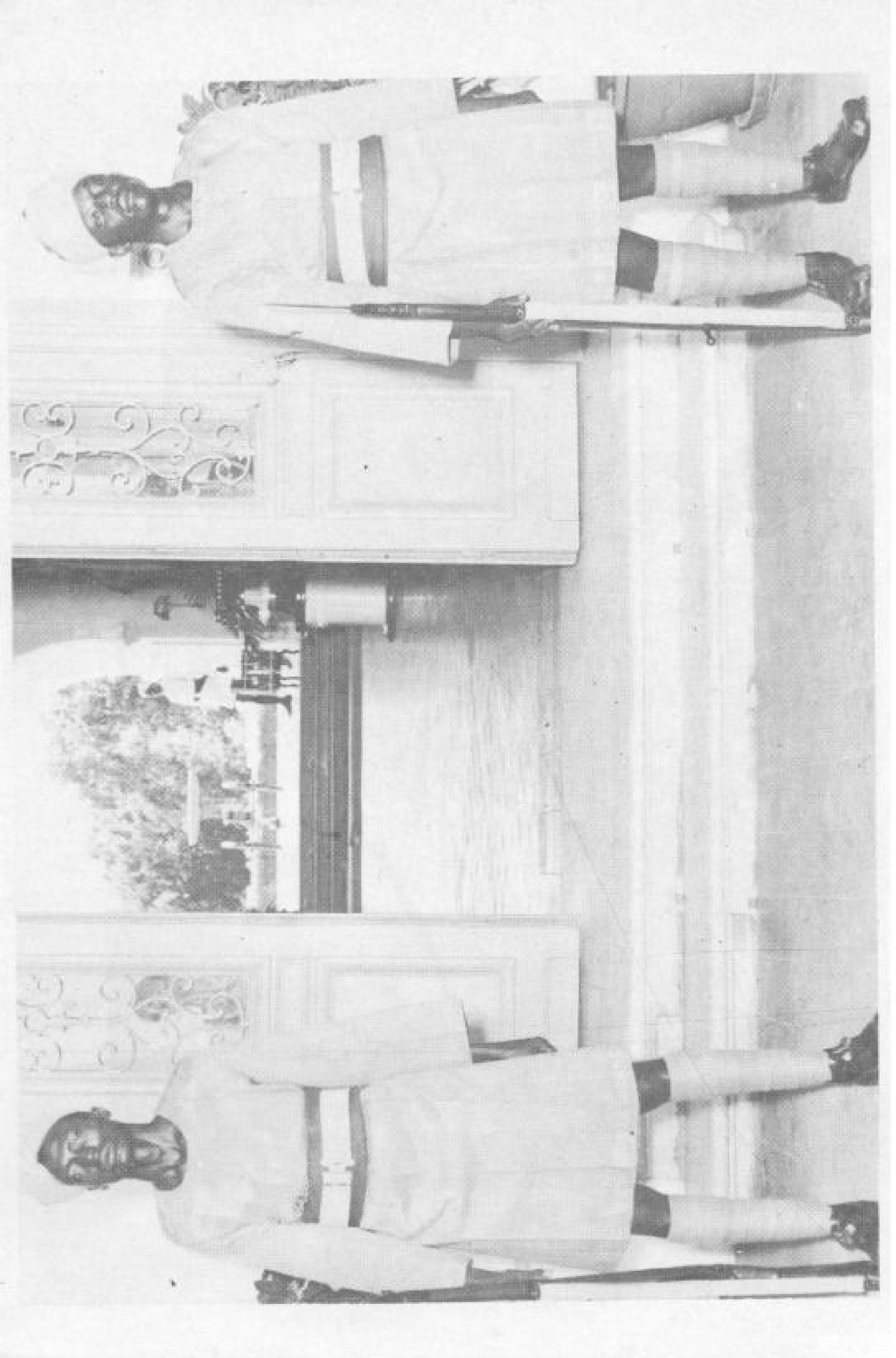
وعندما يرسو بك هذا الفندق الكبير العائم ، ستعرف انك قد امضيت امتع الزمن تأملا ورؤية وتسلية ومعرفة ، وانك على ابواب هذه القارة السمراء في قلب القارة السودانية العظمى ، وانك لا بد ان تقيم اياما طيبة تشهد الارض والانسان والطبيعة في عصر افريقي فطري يعطيك سر الغابة والنهر وسر لون من الوان البشر الحميمين اليك .



كلمة للتاريخ : السودان الجديد يستعرض قواته الاستقلالية ، والجنود

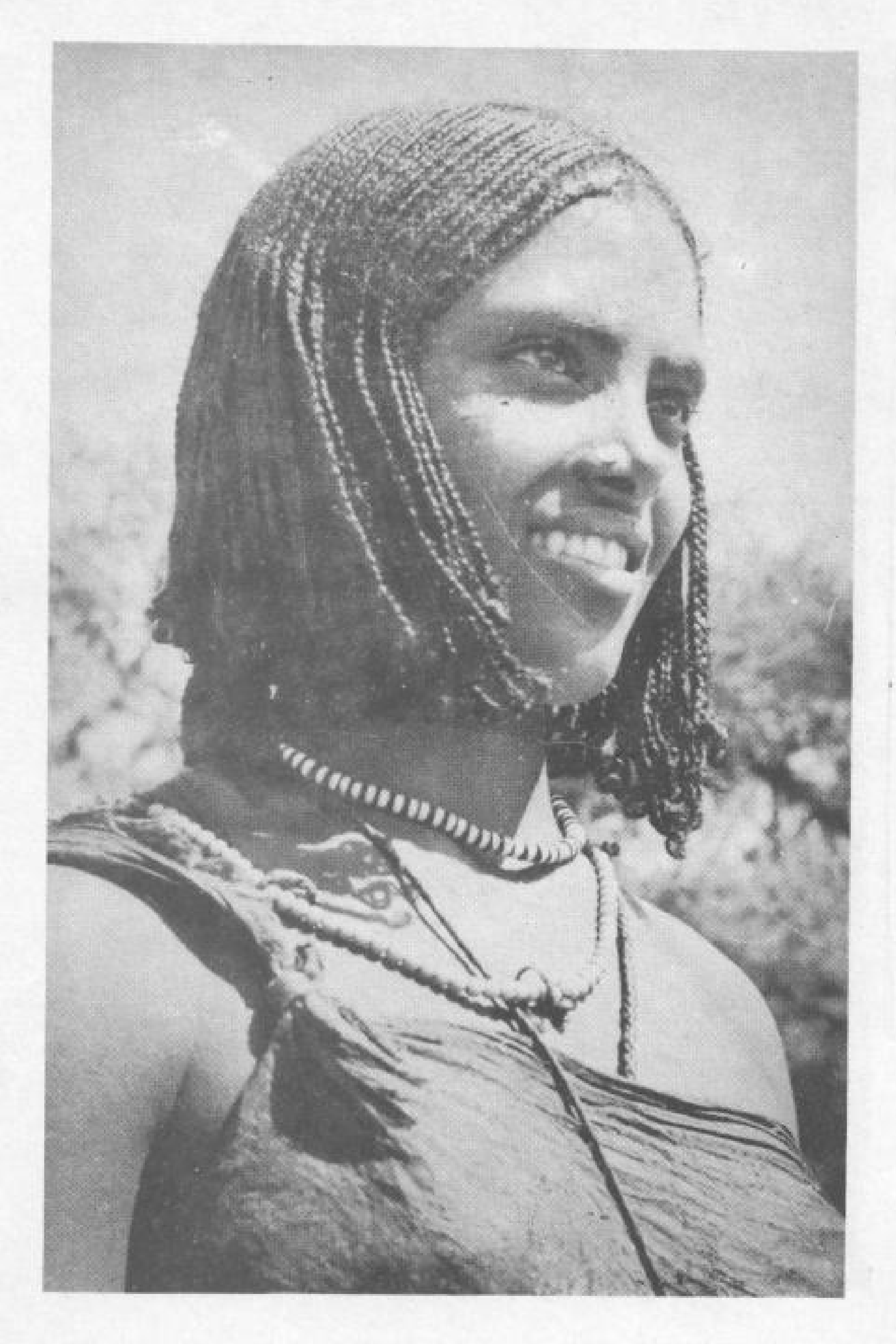
الانجليز يرقبون ذلك ، ومن [illegible]

دعوة للطرب

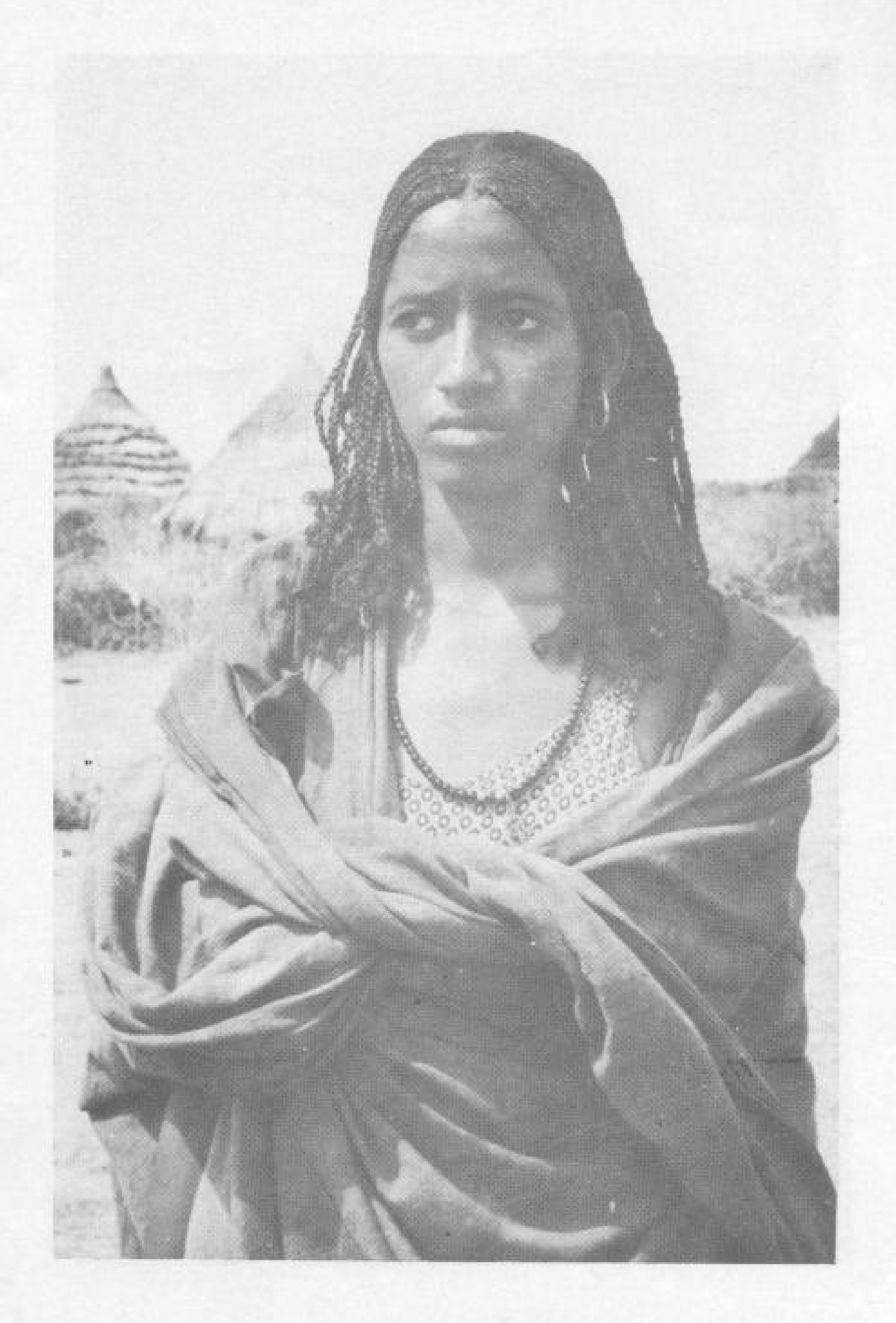




دم عربي ووجه أفريقي .



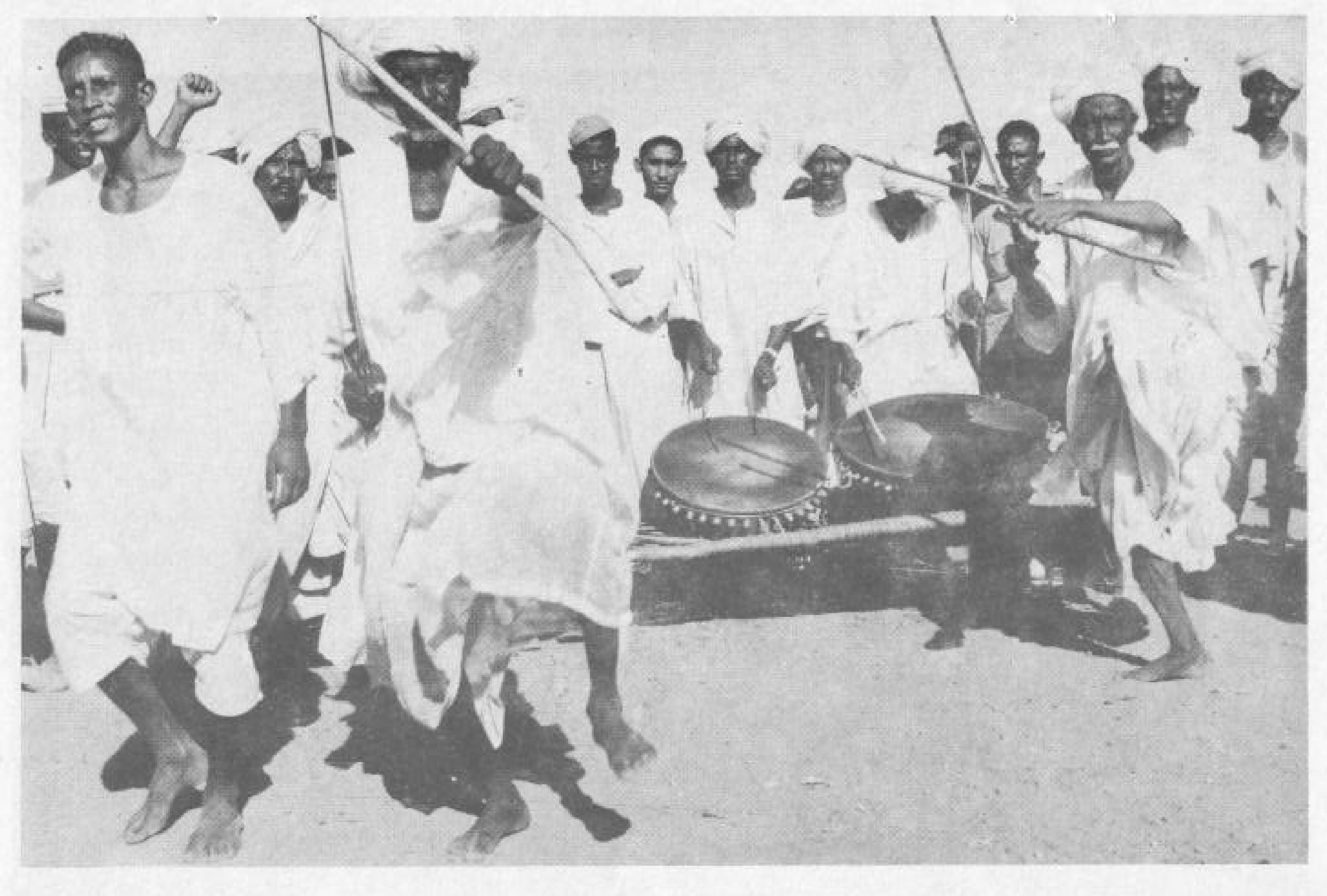
فتنة عربية ونضارة افريقية



انفاس الغابة السودانية



الجنوب السوداني



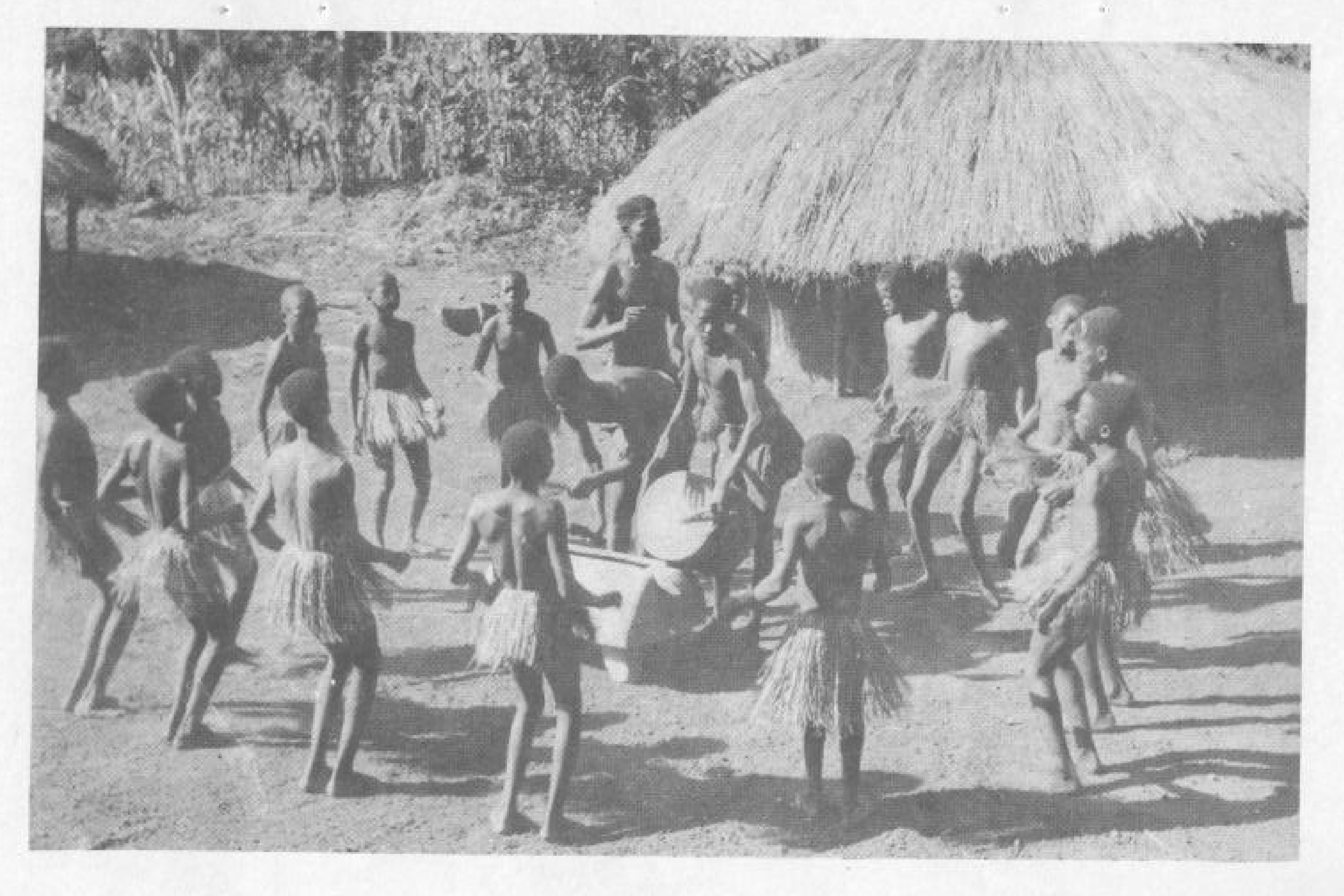
ان الكريم طروب

اهل « شمبات » نظرة الـــــى المستقبل

بنات السودان في محراب العلم



الديموقراطية السودانية ... قائدالدولة ينتظر دوره لينتخب

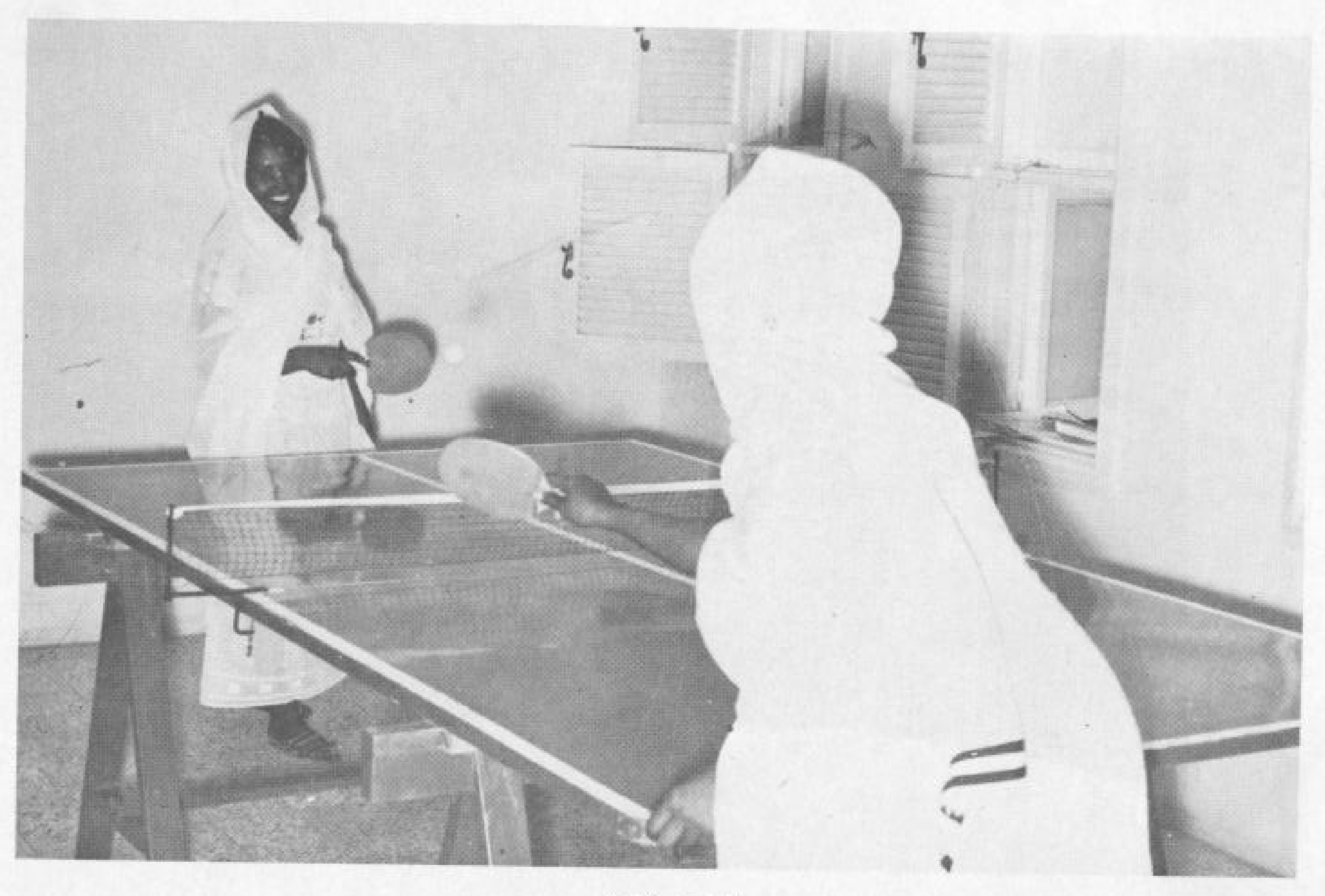


في الغابة

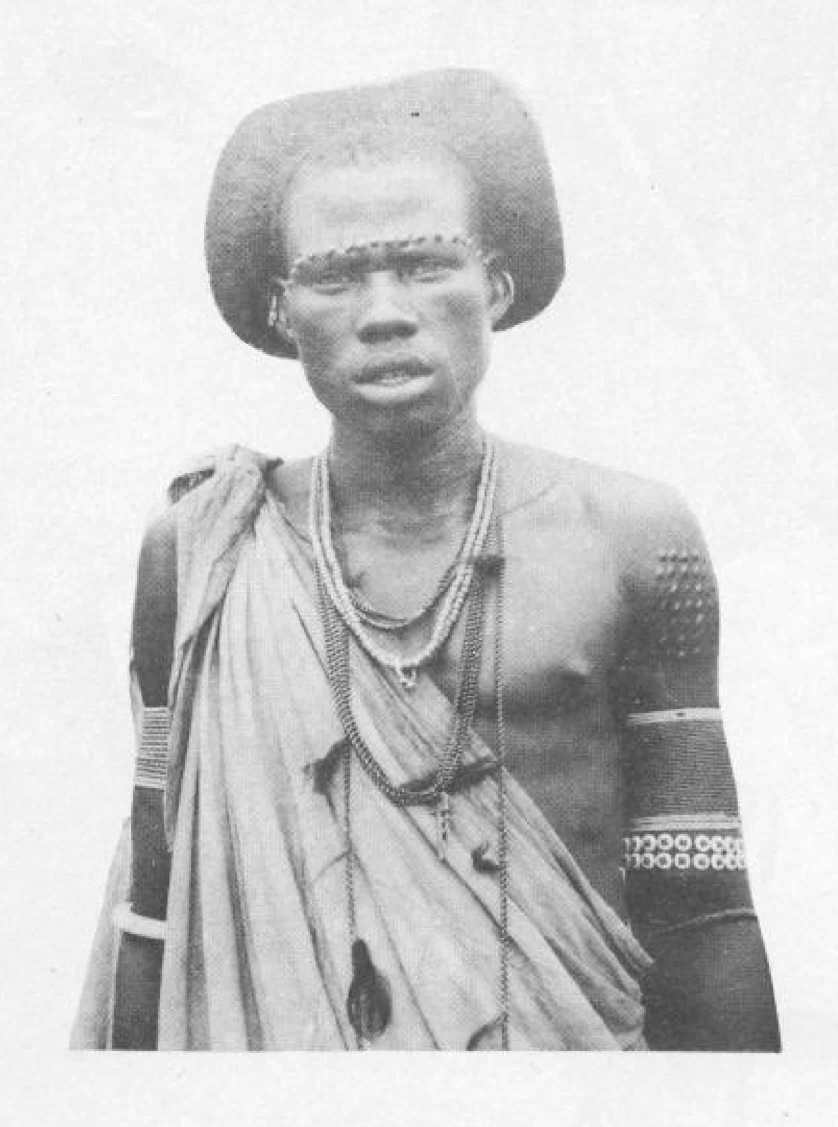
الشيخ والبحر



رقصة من جبال النوبه في جنوب القارة السودانية



رياضة مع الاصالة



رجل من الجنوب السوداني

في أعماق الجنوب

اول احساس يطبع قلب الداخل الى جنوب السودان الشعور انه ازاء عالم فريد من نوعه ، مثير في شكله ، كثير الايقاعات في مضمونه، وان هذا العالم هو القطعة المنسية من الارض العربية ، او انه الارض العربية التي تمثل كف الامة من جسدها العظيم العريق — تلك الامة التي لم تتفرس كثيرا في تفاصيل هذه الكف لتعرف ما فيها من رسوم وخطوط وتفاصيل — .

وقد يستغرب هذا الكلام بعض الذين يقرأونه ، ولكن هذا الاستغراب يتبدد — او ينبغي ان يتبدد — امام الحقيقة التي تقول ان الامة العربية — بحكم موقعها قد امتزجت واختلطت بالكثير من العناصر البشرية التي تاخمت ارضها ، او ارتبطت بعقيدتها الدينية ، او وفدت اليها في هجرات بشرية عبر مراحل التاريخ .

والعنصر الزنجي في جنوب السودان هو العنصر الذي تزاوج مع اكثر من اربعة عشر مليون عربي بعضهم في السودان ، وبعضهم الاخر في « ارتيريا » وبعضا ثالثا موزعا بين اعالي مصر في الشمال ، وفي قاع افريقيا في الجنوب وصحيح ان ثمة عنصر بقي — عند عتاب الارض العربية من طرف مدخلها الافريقي — مغلقا على نفسه ،وثيق الصلة بالغابة وكل مضامينها ، الا ان هذا لا ينفي كون تلك الارض عربية ، ولا ينفي بشكل من الاشكال ان تكون بوابة البيت العربية الكبير لها مدخل مصنوع من اعمدة الابنوس الطيبة النفح ، السمراء اللون وان كان البيت نفسه مصنوع من الطوب الاحمر ، او الحجارة البيضاء .

المهم الان ان ندخل تلك الارض بعد ان رست الباخرة النيلية بنا في مدينة جوبا ، وبعد ان قطعت اكثر من الف ميل وعرة ، وجوبا هي عاصمة المديرية الاستوائية ، اي عاصمة المنطقة التي تمثل مدخل بوابة العرب الى دنياهم الواسعة الرخية ، من عند الاعماق الافريقية ، من الطرف الذي يخفت فيه صوت الدم القومي ، امتزاجا مع الدماء السمراء الداكنة السمرة .

وهذه المديرية غير مطلة على البحر ــ مثلها مثل بقية جنــوب السودان ــ ، وهي نائية عن عاصمة البلاد ، وهي قبل ذلك كانت محرمة على العنصر العربي الخالص في عروبته بامر الاستعمار ، فهي بهذه العزلة الجغرافية ، والعزلة الاستعمارية قد منعت عنها ريح الحضارة ، ومنع عنها الكثير من موجات الثقافة الاسلامية المتاخمة ، او موجات المدنيــة الغربية التي كان يحمل بذورها اولئك الوافدون عنوة واغتصابا ، ولــولا سنوات الاستقلال السودانية القليلة ــ ابتداء من سنة ١٩٥٦ ــ لكــان هذا الجنوب السوداني ارض معزولة عن العصر كلية ، ولكان اقرب مــا يكون الى العصر الحجري منه الى القرن العشرين ، ولولا سنــــوات الاستعمار الحزينة المريرة لكان التزاوج العربي الافريقي قد وصل حــده الطبيعي هنا ، ذلك ان الزحف الثقافي العربي ، كان لا بد ان يبلغ مــداه عند اقصى الحدود السودانية ، تمثيلا لوحدة الارض العربية ، ولكان نتج عن هذا التزاوج نفس « الانسان » الذي يعيش في الشمال ، محتضناروح العربية ومزاجها القومي ، وخصالها الفكرية والوجدانية .

في « جوبا » قبل ان تدخل الادغال وتصبح انت والفطرة المجردة قرينان ، تلمس لمسات الاستقلال : في المدرسة التي ترتفــع ، في الشارع الذي يشق ، في الثوب الذي يعطى للمراة ، في المصنع الذي يزفــر الخير لاهل المنطقة .

واول ما تلمسه ، وانت تشهد ذلك : الخير الاخضر ... هنـــا الارض خصبة ، والسماء خصبة ، والنهر على قرب منك اشد خصبا .. ان الخير هنا يفيض بشكل عفوي حتى انهم يكونون بعض الاحيان مضطرين ان يتلفوا بعض الخير الذي يهطل عليهم بشكل غير معقول ... انهــم مضطرون احيانا الى اتلاف المنجا المتساقطة عن الشجر ، والتي لا تجــد من ياكلها ، ولا من يقطفها .. يدفعون للعمال عشرة آلاف جنيه حتــى يدفنوا تلك المنجا في بطن الارض كي لا تتعفن او تسد الطرق .

وهنا الانسان يبذل اقل جهد بشري ممكن حتى يجني ثمرة الجهد ... او قل ان الارض تنعم هنا على الانسان بجهدها الشخصي لان جهد الانسان يتركز في الجني دون غيره .

وفي « جوبا » تحس احساسا واضحا وعاريا بالنقلةالحضارية.. تحس بالانسان الذي يمر على قنطرة بين مرحلة زمنية مدنية ومرحلة اخرى لانك في « جوبا » تحس فعل المدنية في ملامحه الاولى على الوجوه وفي سلوك الناس ، وتحس البدائية ومخلفاتها ارثا في العادة ونمط الحياة ومظهر الانسان .

تجد هنا الناس بين العري وبين التحجب الجسدي ، اي انهم نصف عراة ، ونصف « مهندمين » ، وتجدهم يمزجون بين روح العقيدة الدينية وهي مظهر تحضر ، عندما يدخلون المسجد او الكنيسة ، وبين روح الفطرة عندما يأتون المعبد هذا وصدورهن وصدورهم عارية ، وتجد البناء الحديث الذي اقيمت فيه المدرسة في نفس الوقت الذي ترى فيه البيت المصنوع من الخشب الجاف الذي جاءوا به من الغابة . وتجد الكنيسة ــ وقد احست بهذه الروح ، روح العبور على قنطرة حضارية ــ وقد سمحت للرجل ان يبقى لديه اكثر من زوجة ، مع مخالفة ذلك نصا وروحا للعقيدة المسيحية .

وبعد هذه النظرة التي تتطلع فيها متأملا الى المنطقة تبدأ بالمشاهدة والسماع والاطلاع ، دون ان تتوقف بنظرتك كثيرا عند حدود الاستقراء العقلي .

تسال هنا ما هو هذا « الجنوب السوداني » ؟ ويأتيك الجواب سهلا من اهل البلاد كلهم ، انه جزء كبير من قارة الوطن السوداني ، يساوي ثلث هذه القارة ، وهو ثلاث مديريات كل مديرية منها تساوي بلدا عربيا كبيرا مثل العراق او سوريا او الاردن ، وتعرف ان هذه المديريات ذات اهم نفحة جمال : مديرية « بحر الغزال » ، مديرية « اعالي النيل » المديرية « الاستوائية » .

وفيما انت وسط الغابة لا بد من ان تشهد قطيعا من الوعل او قطيعا من الريم ... ولا بد ان تستعر بك شهوة الصيد فتأخذ بندقية من رفيق ، وتطلق على القطيع بلا هدف ، وخاصة اذا كنت مثلي لم تحمل بندقية صيد في حياتك ، ولا بد ان تصيب كما اصبت صيدة او اثنتان .

وقد ترغب في البقاء في الغابة زمنا اطول ، ولكنك تحس ان الرفاق لا يريدون ان يدخلوا معك مزيدا في اعماق تلك الغابة ، وتحس انهم على وجل من النمر الذي يربض فوق رؤوس الشجر ، ثم يقفز فجأة على الانسان في الغابة ، وتحس ان الزمن يشدهم نحو الغروب فالليل ، فاي ظلمة وظلام لم يعتده انسان المدينة في ليل الغابة فتخرج معهم ، وتسير بك القافلة حتى تشرف على النهر من جديد ، وترى مدينة مثل جوبا تطل عليك فتأخذ بك الفرحة اجماع نفسك ، فها انت قد وصلت الميناء ، ذلك ان الغابة بحر متلاطم مخيف رغم صمته .

وفي جوبا ـ او وامر ـ او غيرهما من مدن الجنوب تبدأ من جديد رحلة الاستقصاء .. الست في منطقة جديدة عليك كل الجدة ؟.. الست ازاء عالم فريد من ارضك العربية الواسعة ؟ الست في صدد معرفة اشياء من تلك القارة التي اطلت عليك من سنتين اطلالة غريبةقوية فأخذت منك ومن القلب ما اخذت ، ومن الحب والإعجاب ما اخذت ؟

اذن لندخل عالم العادات الانسانية الغريبة ... لندخل معا في اعماق تلك النفس في رحلة عبر الجديد الذي لم نعتده ، وعبر الغريب الذي لم نألف مثله ، ولتكن الرحلة داخل تلك الطقوس التي تحكي لك شيئا في الديانة وشيئا في القوانين ... وشيئا في تقاليدهم في الزواج والافراح والاحزان .

اما من ناحية الدين فان المجتمع في جنوب السودان لم يصل الى وحدة روحية بعد ، وحتى ابناء القبيلة الواحدة يفسرون الاشياء بطريقة غيبية تختلف كل طريقة عن الاخرى ، صحيح ان ثمة ملامح روحية متشابهة ، ولكن المعتقدات في الاشياء وفي الارواح ، وفي القوى الخارقة مختلفة .

و « المسيحية » في جنوب السودان قد استطاعت ان تجد لها ارضا ، ولكن التدين هناك ليس نقيا بالنسبة للشريعة المسيحية ، فحتى ابناء المدن في جنوب السودان ما زالوا يمزجون بين ارثهم الروحي القبلي، وبين الموروث عن الديانة المسيحية ، وحتى الكنيسة هناك ما زالت تبيح لهم عادات دينية وثنية ، لم ترض بها اي كنيسة في انحاء المعمورة ، ولعل اهم هذه التجاوزات او الخروج عن المألوف ــ نصا وروحا ــ هو تعدد الزوجات ، والعري في قلب الكنيسة عريا شبه كامل حسب ماوردنا.

والمهم قوله في هذا الجانب هو ان الدين يمثل مرحلة عقلية جماعية ، فبالقدر الذي يرتقي فيه مستوى العقل الجماعي للفئة البشرية يرتقي فيه مستوى التفكير الديني ، ومحاولة هذه الفئة تفسير الاشياء والقوى .

وعلى هذا الاساس نشهد ان مجموعة العقائد في الجنوب السوداني ــ عدا الاسلام والمسيحية ــ تمثل درجة متخلفة من التفكير الحضاري ، لذلك ترى اهل هذا الجنوب الذين تلفحهم حرارة المدنية لا بد ان يختاروا الاسلام او المسيحية دينا لهم ، وخاصة بعد الخروج من عالم الغابة المقفل الصامت .

في الجنوب ثمة من يعبد روح الاجداد ، وتظهر هذه « العادة » في المجتمع الاشولي ، فبعد شهور من موت « الاب » يبني الابن الاكبر محرابا يسميه «كاك» لروح ابيه امام باب منزله ، والكاك عبارة عن «حامل» خشبي من ثلاث ارجل ، لا يزيد ارتفاعه عن ثمانية عشر بوصة تشبه الى حد سقف الكوخ المحلي .

وفي العادة يقدم الابن لروح ابيه القرابين فيجتمع ــ عندئذ كل افراد العائلة ، فتنحر شاة او عنز ويقدم لحمها مع الخبز المحلي (كون) لتأكل العائلة ثم يوضع ما تبقى في المحراب .

والاشولي ــ رغم هذا النوع من التدين ــ يعتقد من جانب آخر بروح اله واحد ، هو الذي خلق العالم الناس ، وهو المطلق يسمونه « لوبانقا » او روبانقا ، وهذا الاسم الالهي هو اسم جديد فمن قبل كان اسمه الاله « جوك » ــ اختلف الاسم الان واصبح « جوك » اله الشر .ــ

ورغم الزعم بوحدة الالوهية فان المطلع والسامع يرى مظاهرا تختلف عن روح الوحدانية ، فالايمان مثلا بوجود « جوك » في الشجر ، وآخر في النهر ، وثالث يبعث الشر بشكل ثعبان ، ورابع بشكل صاعقة ، او ظاهرة طبيعية ، كلها مظاهر تعدد الالهة ، ما لم يكن يعتقد البعض منهم ان جميع هذه المظاهر صور متعددة لاله واحد .

وعن الحياة الاخرى فان الاشولي يؤمن بان الارواح تعيش مرة اخرى بعد الموت وهذا الايمان يرتبط بفكرة عبادة الاجداد ، وان كانت الاراء هنا تختلف ايضا بالنسبة لسكن تلك الارواح ، فالبعض يقول انها تسكن تحت الاشجار العالية ، وآخرون يزعمون بأنها داخل الارض ،ولكن هناك اجماع على ان روح الاب يمكن ان تنادي وتسمع بواسطة (جواه) الطبيب الساحر .

وتسمى الروح « تيبو » وهي تعني الشبح وهي الروح العادية ، وبجانبها « سن » وهي روح الرجل الميت التي تعود لتطارد الناس .

والاحساس الديني بوجود النكبات الدينية احساس غلاب ، فهم يظنون ان بعض الذين يحملون طبعا سيئا تقتص الالهة منهم ، فتتقمصهم قوى غير طبيعية مهمتها ايذاء الاخرين عن طريقهم ، فاذا ضمر ــ هذا السيء الطبع ــ شرا بغيره جاءه الى بيته ، مبتدأ بالرقص امام بوابة البيت وحول البيت كله ، ثم يبصق قدرا من الدم من فمه عند عتبة البيت فيحل النحس والسوء والكارثة .

وفي قبائل اخرى مثل قبيلة الشلك يمتزج معنى الاله فيتخذ مرة شكل « جوك » وهو الاعلى رتبة ، او شكل « نياكانج » الادنى رتبة من « جوك » الا ان « الاله » ليس هذا هو مظهره ، فان مجموعة من الالهة الاخرى تسكن الغابة والنهر وتمثل البقر والكثير من الحيوانات وظواهر الطبيعة تتخذ مرتبة الالهة .

وقد تختلف مظاهر هذه الالهة بين قبيلة واخرى الا ان التحديد ليس قاطعا في حين ان التشابه في مستوى المعبود قائم .

وفيما يختص بالقوانين فان النظرة في قانون « قبيلة المورو » قد تسعف في اعطاء صورة واضحة عن التفكير القانوني القبلي في الجنوب السوداني .

ولان طبيعة الحياة سهلة ، ولا يوجد ثمة عقد مدنية او حضارية فان قانون هذه القبيلة ينحصر في قضايا الزواج والامتلاك والقتلوالسرقة .

وببساطة القاتل يقتل ... ولكن اي نوع من القتل ؟ انه نفس الطريقة ونفس السلاح ، والاداة التي استخدمت في قتل القتيل ، فاذا قتل قاتل ضحية مستعملا السهم ونفذ السهم في جسد الضحية في جانب القلب فان احد الرماة بعد المحاكمة يتولى تنفيذ الاعدام بتصويب السهم على القلب .

واما قانون السرقة فانه قانون شديد ، اذا سرق اي انسانشيئا لا يخصه سواء كان كبيرا هذا الشيء او صغيرا او تافها ، فان كل الاشياء المثيلة في قبيلة السارق تؤخذ ، واذا كان الشيء المسروق مادة تؤكل مثل العسل على سبيل الافتراض ، فان كل العسل الذي لدى قبيلة السارق

يؤخذ عنوة ، ويؤمر الشخص السارق بشرب كل الكمية في آن واحد ،واذا عجز عن ذلك ضرب ضربا مبرحا لعجزه في فعل المستحيل .

ومثل هذا القانون قد حرم السرقات في هذه القبيلة فمن النـــادر جدا ان تتم حادثة سرقة .

واما الزواج فان قانونه اوسع اطارا من القوانين السابقـــــة.

عند قبيلة الدينكا ــ مثل بقية القبائل ــ يتم الزواج من خـلال تبادل البقر فالعريس يعطي العروس ثلاث بقرات فتمنحهم هي بدورهـــا لابيها واخواتها ، وهنا يجيء اهل العريس الكبار ، ويطلبون من اقربـــاء العروسة الذين يماثلونهم في العمر العروسة ، ويجاب هذا الطلب فورا خاصة وان البقرات قد تم تسليمها ، وعندما يتم ذلك تأتي النسوة وتصحب العروس في زفة راقصة الى بيت والد العريس وهنا تذبح شاة كقربـان للالهة ، ويتم ذلك قبل ان يلتقي العروسان ويحضر تقديم القربان الـــ«باني بيبب » وهم حملة الحراب الصائدين في النهر والبر فيرفعـــون اصواتهـــم والقربان يذبح دعاء للالهة لتحل البركة على العروسين الجديدين .

وتسكن العروس مع زوجات والد العريس ، وعليها في البدايـــة ان تقوم بكل الاعمال المتبعة حتى يمضي وقت فترفع عنها هذه الاعبـــاء، وتبدأ بمزاولة الاعمال الخفيفة ، الا انها مطالبة مع هذا باحترام اهـــل العريس احتراما شديدا ابتداء من الطفل ونهاية بالشيخ الطاعن .

وفي المجتمع القبلي الاشولي يتم زواج الرجل وهو في الخامســـة عشر ، وغالبا ما يتم ذلك اذا وصلت امه مرحلة الشيخوخة ، فان العروس بفتوتها تسال ان تكون سيدة البيت .

ولا يتم الزواج في هذه القبيلة عن طريق الخطبة وتبادل الابقار، وانما يتم بالخطف ، وخطف العروسة هنا عادة رائجة ، وتعد مفخرة وشهرة للرجال ، وانه من العيب الشديد على رجولة الرجل ، ان يصل العشرين من عمره دون ان يخطف زوجة ، هنا تنظر الفتيات بحذر وريبة وشك من هؤلاء الفتية .

وقد يكون اسباب مضي الوقت دون ان يخطف العريس عروسه، هو حذر الفتيات في مقدرته الجنسية كأن لا يرى عندما كان في سن المراهقة في عشرة فتاة ، او احساس اهل الفتيات ان عينا شريرة قد حلت في وسط هذا الفتى او في وسط عائلته .

وعندما يصبح الرجل في عمر العشرين ولم يحقق غرضه في الزواج فان احترامه يضيع وسط الناس ، ومكانته تذهب بين اهل قبيلته ، ويصبح والحالة هذه ـ كأنه احد الخدام البسطاء فيخاطبه الرجال باحتقار ، والفتيات بازدراء ، وتصبح مهمته ان يغسل الملابس ، وان يحضر الماء للاستحمام وان يقوم باعمال النساء .

وهنا لا بد لهذا الفتى ان يخرج من قريته ، حتى يستطيع ان يحتفظ بالبقية الباقية من احترام نفسه ، واذا حصل وتزوج من قرية اخرى فانه يستطيع العودة الى قريته ، وان يستعيد فيها الاحترام وشيئا من التقدير الذي فقد .

وبعد الزواج يتخذ الرجل صفة اخرى فهو لا يجالس « العزابية » وعليه ان يعود الى اهل زوجته ـ بعد خطفها ليدفع لهم المهر بقرا ، وعليه هنا الا ياكل على مائدة لهم الا اذا جاء ابنه الاول ، واذا تم ذلك فانه يستطيع الجلوس مع اهل زوجته الذين يمنحونه بقرة هدية .

وفي قبيلة الشلك يقدسون تقديسا غير عاديا الحماة واهل العروس كلهم ، والزوج يحرص الا يقابل حماته خارج المنزل ، واذا صادف والتقى بها فانه يخفض راسه الى الارض وينحرف عن الاتجاه الذي تسير فيه ، ومن ثم يرسل احد اصدقائه حاملا التحية للحماة .

ويفسر هذا الاحترام على اساس الحقوق الواسعة لابناء الشلك في الاتصال بزوجات الاقرباء ، وميراث الواحد منهم زوجات الاخ والاب او الحما ، ولذلك ترى الرجل من الشلك لا يجلس في ارض بيت اهل زوجته على جلد بل هو يفترش الارض ، لان الجلد او الحصير قد يكون المكان الذي تضجع فيه حماه وانه لا يجوز ان يجلس هو حيث تضجع هذه الحماه .

وبعد فان عالم الجنوب السوداني عالم فسيح مجهول فهو قارة في قلب القارة السودانية ، وان ما قلناه لا يمثل الا لمحات قليلة من سفر حياة جماعية زاخرة المضمون ، كثيرة المعاني ملونة الاجزاء ،سخية العطاء.

وتعرف ان الجنوب ما زال منقسما قبائل عدة ، كل قبيلة تتميز بلغة خاصة ، ومذهب خاص في الديانة ، ولها رئيس يصل احيانا في عرفهم مرتبة الملك ، واهم هذه القبائل قبيلة الشلك التي تتفارق عن البقية من اهل الجنوب بالطول العملاقي ، وقبيلة الدنكا التي يتميز اهلها بالسواد الداكن وبالاجساد الفارعة الجميلة ، وقبيلة « النوير » التي تسكن مناطق المستنقعات ، وقبيلة الباري المعروفة بالذكاء والفراسة والخلق الطيب ، وقبيلة المادي والشلي واللاتوكا ، والمكارك ، وغيرهم من القبائل الصغيرة، ومثل قبيلة « النيام نيام » التي تجمع تحت لوائها سبع قبائل صغيرة ، والنوبة — وهم الوحيدون الذين يسكنون المرتفعات في الجبال الواقعة جنوبي كردفان ، وهم من العناصر التي تمثل الوصل — بدرجته الاولى بين العنصر الافريقي والعنصر العربي ، فكثرة النوبة تعرف اللغة العربية، وهي سمحة الاخلاق رضية الطبع نظرا لكونها اكثر اتصالا بالثقافة الزاحفة من الشمال .

هذه القبائل في مجموعها التي تختلف حياتها في التفاصيل الدقيقة تلتقي عند اسلوب واحد في العادات والديانات وطريقة الحياة ، ذلك ان الارض التي تجمع كل هذه القبائل ، مضافا اليها العزلة التاريخية ايام الاستعمار ، والعزلة الحضارية نتيجة لظروف المنطقة نفسها ، قد ابقت الحياة والارض والانسان فيها على صورة واحدة .

فاذا ذكرنا مجموعة من الملامح الانسانية والاجتماعية لقبيلة من القبائل فاننا نقول ان نفس هذه الملامح — والى حد كبير — تصلح ملامح لقبيلة اخرى ، وتحديدا ، فاننا نرى في الجنوب شروقا في وجوه الرجال والنساء ، وخطوطا مرسومة من قبل بآلات حادة ، ترى بعضهم وقد صنع في جبهته عقدا من اللحم نتيجة كونه قد استنفر هذه الجبهة بالنار ، وترى بعضا آخر قد خط على صدغه خطوطا كثيرة متوازية ،وترى نوعا ثالثا ، وقد فعل ذلك في صدره وفي وجهه ، مع اضافات في الرسوم تختلف في الاشكال بين الدوائر الفارغة والدوائر المملوءة بالرسوم ، اذن الجميع هنا اعتادوا لاسباب دينية واجتماعية ان يفعلوا فعلهم في الوجوه والاجساد عن طريقة التشريح واستنفار اللحم ، مع كون كل منهم يتبع في ذلك طريقة خاصة تميزه عن غيره ، انهم يلتقون في العموميات، ويتفارقون في التفاصيل ، ومن الممكن ان تكون هذه التفاصيل احيانا مهمة لانها تحدد هوية الرجل او المراة او انتمائه القبلي .

واذا سلكنا الدرب معا في عالم العادات رأينا وحدة الشخصية ووحدة اسلوب الحياة .

ان اهم ما يجب ان تتوقف عنده وانت تذكر الجنوب وتراه هو « الرقص » انك عندما تكون هناك تحس احساسا عميقا ان السودانيين من اهل الجنوب يعبرون عن حياتهم كلها بالرقص ...

اذا حزنوا او ابتهجوا ، اذا حلت بهم النعمة ، او نزلت عليهم نقمة ، في الموت والميلاد ، يرقصون عندما يخافون من شيء مبهم ، ويرقصون للوصول الى حد ساطع من النشوة ، في الجدب والفيض ، في الفرح والغضب ... انهم يسيرون اميالا طويلة من اجل ان يرقصوا جماعات ، والنقارة ، او الطبل كما نسميه لا يكف عن الضرب الموقع ، في الفجر او في الغروب ،اذا دجى الليل او اشرقت الظهيرة .

واينما كان الانسان في « الجنوب » لا بد من ان يسمع تلك الايقاعات الساخنة ، التي تلين دقيقة وتشتد اخرى عنيفة كالرعد ، ولا بد لمن يكون في الجنوب ان يشهد تلك الحفلات العاصفة المستمرة، التي يرقص فيها الشيخ العاجز ، والمراة الكهلة والطفل الذي لم تستو مشيته ،والشاب المفتول العضل ، والفتاة الناهدة .

ولقد تهيأت لنا فرص ذلك ، وكان ابهى حفلة امتعت القلبوهزت الخاطر تلك التي كانت في القرى المحذوفة في الابعاد السحيقة من الغابة.

وصلنا القرية التي ترتفع على جوانبها اشجار المنجا واشجار « البابابة » والتي تمثل طرازا فريدا من القرى المصنوعة من القش الجاف لا تعرفها الا افريقيا ، كان الوقت ظهرا والشمس فوق الرؤوس ،والسماء واضحة ، وهمهمة الحيوانات في الغابات تصل ناعمة وقد بددت الريح قوتها .

كان الجميع قد شربوا من « المريسة » ــ وهي شراب الذرة المخمرة ــ قدرا يكفي لاتخام البطن ونشوة الجسد ... كانوا قد وصلوا حالة الملكوت ... وبدات الطبول تقرع بشدة ، وبنعومة حينا ، وتوافد الجميع عراة ، ونصف عراة ، جاؤوا من اول القرية ومن آخرها ...كانت ضربات الطبل الاولى ذات معنى خاص ، شرحوها لنا فقالوا ان ضارب الطبل قد اخبر اهل القرية ــ بلغة الطبل ــ انه قد وفد القرية بعض الضيوف ، وانه ينبغي للجميع ان يرحبوا راقصين بالوافدين .

لم تمض دقائق حتى كانت ساحة القرية قد امتلأت باهلها ،وعلى راسهم اولئك النفر من اصحاب الحظوة ، الذين يتزعمون ، وبالتالـــي يتميزون بالشكل .. في اليد معضد من العاج ، او قل ان اطرافا من سن الفيل قد قصت بشكل سوار وان قد وضعت في الساعدين ، وخرزا ازرق واحمر واخضر ومن الالوان في الرقاب والايدي وعند الخصر ، وريش نعام طويلا مشكوكا في الشعر الاجعد ، وصفارة في الفم ، واحجبة ، وعظامـــا جافة لحيوانات نادرة ، واشياء كثيرة لا تحصرها العين . بدأوا يرقصون بخفة ونعومة والطبول الصغيرة والكبيرة تحركهم والابواق من قرون الثور تنفخ فحيحا طريا ، ثم تشتد الضربات ويشتد الفحيح ، ويتحرك الراقصون بعنف اشد ، وما ان ينتهوا من رقصة حتى يشرعوا في اخرى .

ويستمر الرقص نصف ساعة .. لا بل ساعة .. وتتعب عيناك من ملاحقة تلك الحركات المهتزة والمتشنجة للراس والساعدين وللارجل ، وللجسد كله ، وترى العرق قد بدأ يسيل غزيرا على تلك الاجساد الناعمة الملساء التي برتها الريح العطرة وصقلتها الشمس المضاءة .

انت تتعب وعيونك تصاب بالغشي ولكنهم لا يتعبون يستمرون في الرقص ما اسعفتهم القدرة ، وهي قدرة غريبة عجيبة ، تتذكر معها اولئك الذين اترفتهم صخرة الحضارة الغربية فبدأوا يرقصون كأن ليس عندهـــم في الحياة الا الرقص ، وتقول في نفسك ــ وانت تشهد الرقص الطبيعـــي الغزير العنيف المتشنج ، الذي فيه صلاة ، وفيه حب ، وفيه عبادة ايـــن هم اولئك الاوروبيون الذين يسرقون رقصاتنا في الجنوب السودانـــــي ويصنعونها ويعلبونها في اسطوانات ويرسلونها للعالم . واين قدرتهـــم العاجزة امام هذه القدرة الفطرية :

وتتذكر وانت تسمع قرع الطبول عنيفا كالابتهال الجماعي ، انك قد سمعت شيئا من قبل في الموسيقى الغربية الوافدة الينا ، وتعـــرف ان ليس الذين سرقوا اللحن والايقاع هم اهل الجنـــوب السوداني بـــل هـــم الاوروبيـــون .

وقد تصحو بك اللحظة فتستقرىء هذه الحالة ــ حالة الرقص وايقاع الطبل ــ فتزعم لنفسك ان الرقص هنا ليس نشوة وحسب ، انه محاولة رد الامور التي تستعصي على الادراك لقوة غيبية ، عندما يعجز الانسان عن فهم مغزى الروح ، ومغزى الموت ، ومعنى الميلاد ، واعجاز الخلق ، وفيض الارض ، او شح الارض ، عندما يعجز عن ذلك تراه وان كان ما زال بعد هو والطبيعة صنوان يميل الى ما يمثل عكس التحليل العقلي ، وليس الرقص بطبيعته مظهرا من مظاهر التعقل او الارادة الفاعلة ، انه نوع من الابهام يحاول الانسان فيه ارضاء النفس بحركات غير محددة المعنى ... مثل « الزار » عند بعض الطوائف العربية ــ وفي مصر على سبيل التحديد ــ انهم يرقصون هناك لاخراج الجني والروح الشريرة من النفس المريضة ، وانهم يرقصون عندما يجدون انفسهم في

حضرة ولي صاحب مكرمات فيمزجون التضرع واستصراخ النفس بالرقص المتشنج .

واما الطبل فهو لغة رديفة للصمت .. ان صمت الغابة موحش بعض الاحيان .. انه الصمت الذي يريب ويخيف ويعذب ، وفي لا وعي اهل الجنوب السوداني ــ رغبة للخلاص من ذلك الصمت ، فتراهم يلجأون الى ضجيج الطبل ودويه والى نباح البوق ، وعوائه ، وفحيحه المحموم المعبر .

وهنا بعد هذا اصبح صوت الطبل لغة ... انهم كما عرفنا يتخاطبون بصوت الطبل ، يدعون بعضهم البعض للرقص عبر القرية الواحدة ، وعبر المجموعة المتقاربة من القرى ، ويعلنون بصوت الطبل ــ عن وجود ضيوف ، ويتخاطبون بالطبل اذا جشم الخطر او نزلت النازلة ، ويحفزون القلوب الناعمة اذا داهم العدو بعضهم ، ويرسلون اخبار بعضهم البعض من قرية الى قرية عبر صوت الطبل : اذا مات ميت ، او جاء مولود مهم ، او غشيت القبيلة الفلانية غاشية .

ما علينا ... ان كل انسان في الوجود يصنع حياته بالقدر الذي يقنعه ، واعتقد ان السودانيين في الجنوب قد لبوا الكثير من رغبات الطبيعة والحياة والفطرة الانسانية .

نحن نود ان نرجع الان من تلك القرية التي لم نسمها بعد « ليري » ونود ان نتوقف تلك الوقفة الساحرة في الغابة .

ان الغابة صامتة ذلك الصمت الذي سميناه ـ مريبا ولكن الان صوت الرفاق وضجيج السيارة يقطع ذلك الصمت والسكينة .

وتتوقف السيارة ، ونترجل منها ـ ونحن ما زلنا في الضفاف الشرقية لنهر النيل ـ ونتنبه ونحن نترك الطريق العام ان الغابة بلا دليل تبتلع الناس ، وانه لا يجوز السير فيها بطريقة فردية ، وان الوقت هنا ليس وقت الوحدة المتأملة ، وليس وقت السعي المنفرد . وانه ونحن ندخل لا بد ان تكون الاسلحة مشرعة والحذر شديد ، والرمح لمن يحمله مثبت في اليد ، رأسه منتصب الى اعلى حتى اذا قفز نمر من اعالي الشجر نزل على تلك الحربة المسنونة التي تقتله .

ولا يطول بك الوقت حتى تبدأ ـ مع ضبط حركتك والتخفيف من صوتك رؤية الحيوانات العظيمة المتوحشة ، التي سمعت عنها كثيرا ، ورأيت صورها كثيرا ، ولكنك حتى هذه اللحظة لم ترها على طبيعتها ،حرة في حركتها ، غير مهذبة ولا مدربة في سلوكها .. ليكن الحذر كله نصيبك فان البندقية احيانا لا تفيد دون مهارة في الاستعمال .

هاكم الجاموس البري ... قد يستخف به احدكم وليس من حقه مع الجهل ان يفعل ذلك ... ان قوة الجاموس البري مخيفة انه مرة قد قلب سيارة جيب بقرنيه وبعد ان استبد به الخطر والغضب ، وهو صاحب حيلة .. فانه يوحي اليك احيانا وبعد ان تطلق الرصاصة عليه انه قد سقط ميتا ، فاذا جئته متفحصا انقض عليك بأرجل الثور فيه ، وبقرونه التي تكسر الشجر ، ولا يعلم عندئذ غير الله المصير الذي تنتهي اليه ...

ها هو الثور يسير بسرعة خطيرة ... انه هائج بلا سبب قال الرفاق صحبة الطريق — اتركوه — فتركناه .

ولم تمض دقيقة حتى جئن ... الزرافات الفارعات الطول اللواتي يتمايلن بدلال ورقة ، واللواتي تعرف عنهن ما يجعلكَ تستعجب لماذا اختارت الواحدة منهن الغابة الكاسرة مقرا لحياتها ، وهي الخجولة السمحة ، التي لا تؤذي ذبابة ، والتي تخاف من النسيم اذا هب عنيفا .

ان الزرافات هن حريم الغابة اللواتي لا يعرفن قانونها ،واللواتي اذا راين الدم اصابهن الشلل ... انكَ اذا ضربت بالنار واحدة من الزرافات امام رفيقاتها وسالَ دم تلكَ الرفيقة اصابت الحيرة القطيع الكبير منهن ، وتوقف الجميع منهن عن الحركة بانتظار مصير مجهولٍ .

والزرافة هنا مأكولة اللحم ولكنهم يقولون ان لحمها ليس من ذاك النوع الدسم ... انه مثل لحم الحجلَ كثير الاحمرار ، قليلَ الدسم .

ولن يمضي بك وقت طويل آخر حتى ترى قطيعا من الفيلة .. ان الفيلة هنا عالم كبير غريب تجد اثاره وبصمات شخصيتـــــــه في الارض السودانية كلها ... اليس اسم العاصمة الخرطوم ، اليس حلي اهـــل الجنوب من السودان شيئا من عاج الفيلة ... اليست الصناعـــات الدقيقة من ذلك العاج ... الا يركب بعض الجنوبيين الفيل دابة ؟

انك تتذكر ذلك وانت في الغابة اشجار الابنوس العظيمة مـــن حواليك ، والاعشاب الطويلة تغمرك حتى الراس ، والاحساس بانك في عالم آخر غريب غير الذي عرفته يملأ قلبك .

وتسأل عن الفيل ومن حقك ان تعرف عنه الكثير فيقول لك الادلة وهم يشيرون اليه لا بل الى القطيع كله الذي تجاوز عدده المئة ان هـــذا الفيل يأكل في اليوم حوالي ٢٠٠ كيلوغرام من الخضروات والاعشاب ،وانه يسير كما ترى بسرعة قد تصل ثلاثين ميلا ، وهو يسير ــ كما تسمع ــ مطلقا صوتا قويا ، ان الفيلة لا تسير بهدوء بل هي تطلق زفراتها المدوية، وهي تسير في طابور كبير تتقدمه انثى الفيلة الاكبر سنا ، تتبعها بقيـــة الاناث وصغارها من اولاد واحفاد ، ويدرج من وراء الاناث ذكور الفيلة باستمرار الا في الوقت الذي يتعرض فيه الطابور للخطر فيتقدم الذكـــور علـــى الانـــاث .

وترى هذا القطيع يبتعد عنك ــ وانت تسمع عنه ما تسمـــع ــ تراه يبتعد عن الاشجار الكبيرة ، ولكنه لا ينفك يدوس الاشجار الصغيرة، والاعشاب ، مزيلا من دربه كل ما يعترض .

واهل الجنوب السوداني الذين يزرعون الذرة لا يخافون عليها من الطبيعة ولا من اللصوص ، لان الاولى رفيقة بهم ، والصنف الثاني معدوم ، بل يخافون الفيلة التي تتلذذ اذا شاهدت حقل رة ... تتلذذ بالاكل منه ، وباتلاف ما بقي ، ويقال ان الفيلة تسبب الكثير من المجاعات نتيجة هذا العبث .

ولو وددت ان تعرف المزيد عن عالم الفيل وانت في هذه الغابة ، فلا بد من ان تعرف ان الفيل لا ينام الا ساعات ثلاث ، وانه صاحب حاسة شم قوية يشم بها اذا رفع خرطومه في الهواء مسافات بعيدة .

والفيل لا يخاف اي من وحوش الغابة ، ولكن المفارقة العظيمة انه يخاف من الضفدع ... انها عدوه اللدود ، وخاصة اذا دخلت هذه الضفدع خرطومه وهو يشرب من النهر .. انه في تلكَ الساعة يصاب بالجنون وبالضيق الغاضب العنيف ، ويبدأ في ضرب خرطومه بالارض والاشجار ، حتى تخرج الضفدع الملعونة ، واذا لم تخرج استمر في ضرب نفسه بعنف وغضب حتى يتورم خرطومه ويتسبب في موته .

وتمضي بكَ الطريقَ — في قلب الغابة — فتشهد اي ثروة عظيمة فيها ... هناك اشجار الفاكهة من كل نوع لا تجد من يجني الثمر فيها .. اشجار المنجا ، واشجار « البابابة » واشجار الاناناس واشجار الموز واشجار لا نعرف لها اسم ... وهناك امراة في الغابة تحاول ان تصنع ما يلبي حاجتها فتحرق بالنار جذور شجرة البابابة حتى تأخذ السكن فيكون بديلا لملح طعامها . وهي تفعل هنا ما يفعله غيرها .

رحلة في النفس السودانية

لم نحمل السودانيين ، ونحن نستطلـع صورتهم النفسيـة والوجدانية ما لم يحتملوه ، وقد تبدو الاوصاف التي وصفناها بهم كبيرة وعزيزة في زماننا العربي الذي نحيا ، ولكن الذين ينزلون ارض الوطن السوداني العربي سيشهدون له بما شهدنا ، لا بل سوف يزيدون علينا اذا خرجوا من العواصم في رحلة الـى الخلاء السوداني حيث ما زالت تلك القبائل العربية مقفولة على ارث النخوة العربية ، حريصة علـى تقاليد الماضي التليد ، عزيزة في وصلها الاخلاقـي والسلوكي بالقبيلـة العربيـة ذات الجاه التاريخي ، وذات الشهرة الفائضة بعطر الماضي العظيـم .

ولا بد لنا ونحن بصدد تلك الجولة الواسعة الجغرافية والنفسية في الارض والقلب السوداني ان نعـرج علـى الباديـة وان نعايش بعض الوقت اهلها ... ان ندخل الى عالم تلك القبائل الصحيحـة فـي عروبتها : الشكرية والكبابيش والضبانية ، وان تكون الرحلة في قلب الجزيرة « ابا » وفي الشرق السوداني علـى ان نمر في مواطن العروبة في الغرب مرورا طيبا . ولا بد ايضا من ان نرى صورة تلك القبائـل العربية الصحيحـة الاخرى الشايقية والعابدلاب والجمليين ، فـان صورة القلب العربي السوداني لا تتضـح دون رؤيـة ذلك النفـر الكبيـر من القبائل .

وتحس وانت تدخل عوالم القبائل العربية فـي هذه المناطـق ما احسست بعضه في ام درمان ، ونعني التزاوج الاسيوي الافريقـي ، او قل التزاوج العربي مع الزنج فهم هنا اشد سمرة من اهـل المدينة في السودان ، واشد سمرة من اهل مصر وبر الشام ، ولعل الشمس الحادة هنا ، والهجير اللافح عنصران مهمان في اشتداد هذه السمرة .

وسترى ان الوجوه السمراء العربيـة مشلخة هنا ، وان هذا التشليخ جزء من نظريـة جماليـة يؤمنون بها ، وستعرف ان لكـل قبيلة منهم شلوخ محددة معروفـة ، مميزة بها عن قبائل اخرى ، فثمة من ترى فيه شلوخا افقية ، واخرين شلوخا عامودية صغيرة ، وثمـة اخرين تتقاطع في وجوههم الشلوخ الافقيـة والعامودية ، وسـوف تعرف انـه كلما اتسعت دائرة الوجـه كلما ازدادت تلك الشلوخ ، وان بعض القبائل الصغيرة والبرابرة واهـل النوبة يقلدون هذه القبائل في محاولة للارتفاع الى ذوقها العام . وان هـذا التشليـخ يتـم فـي الطفولة والخدود ما زالت نديـة طرية ، وانـه يندر ان تكون فتـاة بلا شلوخ ، لان ذلك يعني فقدانها شيئا من سمات الجمال المتعارف عليها ، الا ان الفتاة هنا تزيد علـى الشلوخ الوشم الاخضر في الشفاه .

وسترى ان مجموعـة خصال الجمال في هذه المرأة العربيـة السمراء هي تمثيـل حاد قوي لعرف العرب الجمالي وذوقهم بالمرأة : غزارة الشعر وسواده ، امتلاء الشفاه ، اتساع العينين انتصاب العود، التفاف الجسد ، قوة الصدر ونهوده .

وعندما تتأمل الفتاة العربية في الشرق السوداني فانك تحس انها ذات طعم جمالي مغاير لما عهدت ورأيت وستقدر ان هذه الفتـاة صاحبة عيون مسبلة في حياء وخفر ، وان فيهـا رقـة عذبـة حيـة ، وفيها ذلك الدلع الصامت الموحي ، ومع كـل هذا الطول الفارع الذي تتدلى على كتفيـه الشعور الداكنـة السمرة ، المجدولة جدائل دقيقـة رفيعـة ناعمة ، وسترى ان هذا الثوب الذي يلف هذا الجمال الاسمر في استعماله ذكاء انثوي عميق ، فانـه لا يقرب اليـك ، ولا يظهر لك الجمال كله معروضا رخيصا ، وانما هو يقدمه لك ملفوفا بما يستحق ، مثل العطر الثمين النفيس .

وعندما تقترب من الانسان العربي هنا ، وتكشف عن عقيدته ، او ترى هذه العقيدة حياة تعاش ، فاعنك ستتذكر ما تلناه لك وهـو ان اخلاقـه هي اخلاق العرب الاوليين ، بكل ما فيها من فروسية الرجولة ، ونخوة المروءة ، سترى فيهم حب النجدة لمن استبيح ، وحب الضيف والتزاحم علـى اكرامه ، وستشهد انهـم يرعون الجيرة ، ويتشددون في القضايا التي تمس الشرف الشخصي او الشرف القومي ، وسوف ترى انهم لا يهابون الموت ، وان في افعالهم واقوالهم جراة وقوة ، وان فخر الرجل برجولته وارد عند كل منهم ، وانهم اهـل صبر عنيد ، واهـل جلد على بلاء الايام او قسوتها وانهم من اولئك الذين يؤثرون الموت علـى المذلة .. مذلة الانكسار او مذلـة السؤال ، او مذلة العار الـذي يلحـق .

ومن شدة تماسك كل فرد من هؤلاء الرجال باحترام نفسه ، واعتزازه بشخصه فأنه قد يموت جوعا قبل ان يسأل الناس حسنة .

وقد اورد الاستاذ نعوم شقير الكاتب اللبناني الذي كتب عـن التاريـخ السوداني مثل هذه الصفـة فقال : « وعن غريب اخلاقـهم انـه اذ اتى الجدب ، واشتد الجوع اغلق الواحد منهم بابه علـى نفسه واولاده ، وانتظر الموت جوعا ، ولم يسأل احدا خوفا من التعيير بذل السؤال . والمريض مهما اشتد مرضه والمه لا ينطق بكلمة تدل على تألمه . وكذلك المضروب لا يبدي اقـل توجـع مهما اشتد الضرب عليه، والمسوق الى القتل لا يبدي اقل جزع او خوف » .

ويتذكر المرء وهو يشهد ويقرا هذه الخصال تلك الجملـة القصيرة التي وردت علـى لسان صحفي انجليزي صديـق : « لـو كان السودانيون علـى حدود اسرائيل لمـا بقيت اسرائيل عشرين سنـة في الارض العربية » .

ولا شك ان هذا الصحفي كان يعني ما يقول ذلك ان نخوة الرجال تلزم بالصبر والجلد في القتال ، وعدم الخوف من الموت ، والاستبسال في الدفاع عن الشرف الشخصي والقومي ، والعناد في الموقف مهما كان الخطب ، والاستمرار في التضحية حتى يتحقق الهدف .

وكل هذه الخصال خصال سودانية خالصة في عراقتها السودانية، وفيما لو استطردنا في الطريق عبر هذه الرحلة النفسية في القلب السوداني ونزلنا بيتا من تلك البيوت العربية في ابا الجزيرة فاننا سوف نعرف معنى قري الضيف ، فأننا اولا نشهد في كل قرية من القرى مضافة كبرى للأغراب ، في حين اننا لا نرى فندقا ولا نزلا لانه من العار الشديد ان يبقى العربي غريبا بين اهله وابناء عشيرته ، وان يدفع ثمن نومه وثمن طعامه ، وسنرى ايضا ان كل بيت غير المضافة العامة فيه مضافة خاصة ، وانه اذا نزل الضيف منزلا فان كل الجوار يحسون انهم ملزمون بقربه ، فكل منهم يرسل من زاده بعضه حتى يأكل ذلك الضيف من اكل الجميع في ذلك المكان الذي يسمونه خلوة والذي اعد لراحة الغريب الوافد .

وفي تلك البلاد سترى ان السيف العربي ما زال مكانه هنا موجودا وسترى اذا قام فرح كيف تلمع السيوف بين ايدي الرجال وكيف يعتز كل منهم بسيفه ، وكيف تصل العزة بالسيف احيانا رده الى اصول عريقة كالقول ان هذا السيف هو سيف « الزبير بن العوام » او سيف ابي عبيدة بن الجراح ، او السيف الذي قاتل مع ذو الفقار سيف علي بن ابي طالب وسترى ان هذا التمسك بالسيف والخنجر المعقود في الساعد اثارا من فروسية العرب بقي معها ذلك الشيء الذي يسمى البطان ، وهو مباراة الرجولة امام الاناث ، ضربا لبعضهم البعض بالسوط حتى يدمي الجسد ، وسترى ان بعضهم لا يمكن ان تتحقق

له المكانة المرجوة في قلب الحبيبة الا اذا دخل تلك المباراة وهـــو يهتف : « ابشري بالخير انا اخو البنات العشر » ، وحتـــى يتصدى له بعـض من ينافسه علـــى قلب الحبيبـــة فتبدا مباراة الجلد بالسوط ، كل منهما يضرب الاخر دون ان يهتز لواحد منهما جفن ، وان يبدو علـــى وجـــه واحد اي اثر للالم او العذاب .

وقد يسال سائل لم يتعمق في طبائع الناس اليست هـــذه من العادات الهمجية ، ولكن واحد من الذين استبطنوا الضمير السوداني ، وتعمقوا النظرة في معنى البناء الخلقي والنفسي سيرد على ذلك بالنفي، وسيقول ان مثل هذه الافعال نوع من رفض الليونة للرجل ، ونوع مـــن تدريب النفس علـــى الجلد والصبر ، ونوع مـــن احتمال الغاشية اذا غشيـــت .

الا ان هذا النوع من العنف الذي يرضى به الرجل لنفسه ليس هو طابـــع الحياة كلها ، ولا يعني ان الحياة في السودان هي حيـــاة قاسيـــة غير منفرجـــة علـــى السلوة والانس ومباهج الجباة .

انهم هنا ايضا اصحاب مزاج غنائي ، واصحاب مزاج طروب، ولا يكاد يمضي اسبوع في قرية دون ان يشترك اهلها كلهم فـــي فـــرح ، ودون ان يضرب الطبل بدوي، والمزمار برقـــة ، وبـــدون ان يرقـــص الرجال رقصاتهم المعهودة على ظهر الابل ، وان يرقصوا مع نسائهـــم ، او ترقص النسوة وحدهن ــ انظر افراح سودانية ــ .

لا بل ان جانب القسوة الذي يحيا به الرجل مرتضيا يقابله عالم المرأة الطري الرضي ، واذا كان البطان هو مظهر الرجولة العنيفة ، فان الدلكة نوع من تدليل الرجل لنفسه ، واذا كان البطان ايضا مظهر العنف للرجولة فان ما يسمى « بالتدخين » هو مظهر الانوثة الرقيقة للمرأة .

فما هي الدلكة وما هو « التدخين » ؟

الدلكة حمام بخاري تركي ، ولكنه على الطريقة السودانية فهم هنا « يأخذون عجين الذرة مخبوزا بالماء المغلي حتى يصبح كالعصيدة، ويضعونه في قدر يوقدون من تحتها النار من خشب الطلح والشاف والكليت حتى تجف تلك العجينة وتأخذ رائحة الاخشاب الطيبة المحروقة فيعجنونها انذاك بمعجون الدلكة من القرنفل والمحلب وخشب الصندل والظفر ، وقد يضيف اليه الموسرون اللبان والسنبل والزباد والمسك ، حتى يصبح مثل البرهن الذي تفيض رائحته بعطر شجي ، او حتى يصبح « كريم » من تلك التي تستحضرها المصانع الباريسية الان لنطرية الجلد وتنعيمه وهم يمسحون اجسادهم بهذا المستحضر في الصبح وفي الليل حتى تكتسب تلك الاجساد رائحة الطيب وطراوة اللمس ، ورطوبة تحتمل حر الهجير .

واما « التدخين » فهو ما تميزت به النساء دون الرجال وهو ان تتجرد المرأة من كل ثيابها في مكان مغلق محكم الاغلاق وان تمسح جسدها بزيت السيرج ، وان تلفه بشملة من الصوف ، وان تقترب من حفرة احرقت فيها كل الطيوب من خشب الطلح والشاف والكليت فيحمى جسدها ،وهو يستنشق ذلك الطيب، وتتفتح مسامه وتنضح بالعرق،وتبقى كذلك مدة ساعة او ما يزيد ، حتى اذا انطفأت النار فتحت النوافذ واحدة تلو الاخرى حتى يخرج الدخان المحتبس ، وحتى يجف جسدها المبلول .

وهنا تأتي من تدلكَ هذا الجسد بمزيد من الطيب والعطر المعتق.

وهكذا تمضي بكَ الايام لينة في قلب الشرق السوداني ورخية في ارض الغرب ، مثلما تشهد في تلك الجزيرة ابا روح العربية ، والتليد من العادة ، ومثلما ترى بنفسكَ في كل هذه الانحاء مزيدا من صورة تلكَ القارة السودانية الوفية للنفس وللعرب كلهم .

في النوبـــة

لو امكن الخروج من اعماق الجنوب الى اعالي الشمال في عباب النيل لفعلنا ذلك ، حتى يكون امامنا تلك الفرصة النادرة المتواصلة الايقاع، التي توضح لنا جغرافية الانسان عبر جغرافية الارض . واذا كانت الرحلة من كوستي بعد الخرطوم الى جوبا قد وفت ببعض الغرض الا انه كان من الافضل لو تهيأت تلك الفرصة ، ولكن الان نرى ان نقفز في الجو، وان نجتاز ذلك المدى الارضي والانساني قادمين من جوبا عبر « واو » و « ملكال » عواصم الجنوب السوداني الى « واد حلفا » في ذروة الشمال السوداني .

ولسنا على اي حال — والطائرة توجز لنا الارض ومن عليها — في حل من ان نشهد في رحلة الساعات الثمانية هذه تلك الملامح التي تنقلنا بين الخضرة الكثيفة ، والخضرة المزهوة ، وفوق النهر ، وهو يبدو لنا متعرجا كانه خيط ابيض رمى به طفل على سجادة مطرزة بكل الالوان.

وسيبدو لنا ونحن معلقين في الاجواء معنى « التجريد » .. كيف تظهر الاشياء بلا وجه وبلا تفاصيل ، وكيف لو امسكَ المرء قطعة من هذه الارض الملونة — التي لا تظهر شيء الان — ثم بدأ رحلة التقصي والاستبطان في اعماقها ، لراى ملايين الاشياء ومئات المخلوقات ، والالاف من عيدان النبت والزرع ، وعشرات الالاف من الحشرات ، وكيف لو دخلَ في رحلة التقصي وراء كلُ شيء من هذه الاشياء لرأى نفسه في عالم مختلف متفارق عن عالم الشيء الاخر ، هنا يحس كيف يذوب « الكل في الواحد » وكيف تصبح ملايين العوالم عالم واحد .

ولكن هذا التأمل الذي ينتشي منه الانسان وهو يستطلع صورة الحياة من فوق لا يستغرق الانسان كله ... فأن شيئا من التفاصيل ستظهر للعين ، وستجذب الفكر في اجوائه لتضعه من جديد حيث يجب امام الواقع المرئي .

سيرى الواحد هذا الزارع السوداني مثل النقطة البيضاء في البساط الاخضر ، وسيرى طيارة صغيرة تحبو فوق الزرع تنثره بالكيماويات ، وسيتشقق امام العين البساط الاخضر عن ازقة سوداء لم تثمر الزرع ، وعن ازقة صفراء جافت الانسان وجهده ، وسيرى مصنعا هنا عند هذا الشاطيء دخانه يتصاعد كثيفا ، وسيبدو المصنع وسط الارض كأنه مبخرة في كف رجل تنفث الطيب ، وستمضي هذه الطائرة فوق قرية مشلوحة عند سفح هذا النهر ، وعلى اخرى منثورة على ارض واسعة ، وعلى ثالثة ترى فيها الانسان والحيوان قرينين ، فقد ضاعت المسافات بينهما ، واصبحا — من بعد تجريدي — ولدي ارض واحدة وبيت واحد .

وعندما تصل الطائرة بنا الخرطوم وترى هذه الرحابة اللامتناهية — اوسع العواصم العربية اتساعا افقيا — فاننا سندرك معنى وفرة الارض ، وخاصة عندما ترى كل البيوت لها حدائق خضراء فسيحة ، وان كل بيت ارتضى لنفسه رقعة تصلح لعمارة شاهقة في بر الشام ،وسيقول: انه من النعم الكبيرة على ذاك الشعب ان تكون مساحة ارضه مليون ميل مربع ، وان يجني في بيته وحيه وعاصمته ثمار هذه النعمة .

ولن تتوقف الطائرة بنا كثيرا حتى نركب اخرى لنستكمل قطع الارض السودانية سيرا على خط مستقيم من الجنوب الى الشمال .

وعندما نصل سيكون السؤال الاول الذي يطرح ، ونحن نتأمل الوجوه والارض ومن عليها ، هل المسافة الانسانية بين الشمال والجنوب مساوية للمسافة الجغرافية ، وسوف يكون الجواب بعد قليل من « المعاشرة » بالايجاب ، والا ما معنى ان يكون الانسان ابن بيئته ، وما معنى ان يكون السودان قارة — ان لم يكن غني الشخصية ، ملون بانسانه وارضه وحيوانه ونتاجه — .

وفي الشمال او بلاد النوبة ـ كما هو اسمها القديم ، وبلاد البرابرة كما يتعارفون في السودان ـ سيرى المشاهد موجة حزن على الوجوه ، وحسرة تزفر مع الكلمة ، والم يعلن عنه اذا دخلت بيت من البيوت ، او جلست في ساحة بلدة او قرية ، او سمعت منشد او مغن .

وستعرف بعد الاستطلاع ان هذا الحزن هو اشرف احزان الانسان وانبلها ... ذلك الحزن الذي يعبر عن صلة الروح بالارض التي انجبت، وتعلق النفس والعقل والكيان كله بذرات الرمل التي تساوي الوطن .

وسيعرف الذي ينزل ارض الشمال السوداني اكثر معنى هذه الاحزان عندما يعرف ان اهل النوبة قد اقتلعوا من ارضهم اكثر من مرة ، وان هذا الاقتلاع قد تم سنة ١٩٠٢ ، وسنة ١٩١٢ ، وسنة١٩٣٣ ، وسنة ١٩٦٤ ، في كل مرة كان يقام فيها « سد » من السدود ، او في كل مرة يتم فيها اصلاح لحصر مياه النيل وتوزيعها بين مصر والسودان.

وستعرف نبل هذه الاحزان حقيقة عندما تعرف ان الدولة السودانية قد منحت ارضا اوسع ، وبيوتا اكثر حداثة ، وانها اعطت المنح المالية ، والقروض ، وهيأت كل اسباب الرفاه الريفي للذين اقتضت المصلحة العامة ان يخرجوا من بيوتهم وارضهم .

انهم هنا في الارض الجديدة اكثر غنى ، وارضهم اكثر نتاجا ، ولكنهم لم ينسوا الارض التي ولدوا فيها ، والبيوت التي استظلتهم ، ولم ينسوا حتى « نيلَ » تلك المنطقة ، ولا الحواري والازقة في القرىَ ، لم ينسوا النقوش على الجدران ، ولا الساحات العامة التي كانوا بها يتحلقون ، ولم ينسوا ايضا الاشجار المعمرة ، ولا التلة الصخرية التي كانت تطلّ ساعة الغروب على الغيطان .

احسوا عندما خرجوا انهم منفيون من الارض التـي عشقـوا ، احسوا انهم لاجئون جدد ، احسوا كأنهم اشجار معمرة تقتلع من جذورها.

ولذلك بكى منهم من بكى على الارض والقرية التي ذهبت الـى الابد — في اعماق تلك البحيرة العميقة المخيفة — .

وقال الشعر الحزين الناضح بمأساة الفراق من قدر على ذلك ، وغنى الجميع لوعتهم بالحان المزمار الحزينة ، وبقيت ذكريات تلك القرى الصغيرة الحبيبة تقرع القلب والوجدان والخاطر .

ولا شك ان من يسمع اقاصيص تلك المنطقة ستتحرك في قلبـه كل تلك المشاعر المدخرة للوطن ، وسيلمس في اهل الشمال السودانـي صورة القلب الذي ينزف من اجل الارض والوطن عارية مجسمة ،وسيحب لنفسه ان تكون لديه كل تلك الاحاسيس الاصيلة — دون ان يحـب ان تسحب الارض من تحت اقدامه — ، وشخصيا تذكرت فلسطينيتي هنـاك كأشد ما يمكن التذكر ، وكلما ذكر واحد « حلفا » القديمة ، تذكـرت « حيفا » الغالية ، وكلما قال شيئا عن التلة السمراء المطلة علـى بحـر النيل تذكرت الكرمل الاخضر الذي يشرق عملاقا على البحر المتوسط .

والنوبة بلاد — بعد هذا — صلتها بالتاريخ صلة قوية . . . انها « موطن » احتل من الماضي جزءا مهما ، وثمة من يقول ان حضارة هـذه الارض سباقة لحضارة الفراعنة ، وحضارة ما بين النهرين ، الا ان المؤكد ان الفراعنة كانوا قد بسطوا نفوذهم في فترات طويلة على هذه الارض ، وانهم طعموا ولقحوا ثقافتها بلقاح شخصيتهم وثقافتهم ، وان الشخصية النوبية كانت تستيقظ يقظة شبه قومية فتتمرد على الفراعنة ، وتحاول ان

تستنهض نفسها ، وكلما ضعف الفراعنة كانت النوبة تحاول ان تشق عصا الطاعة عنهم ، وخاصة في ايام الهكسوس حيث ابتليت مصر بالغزو، وحيث استطاع النوبيون الخلاص من قبضة الفراعنة حتى كانت سنة ١٥٨٠ التي انتصرت فيها مصر على الهكسوس واقامت طيبة عاصمة لها، فوجهت حملة استرجعت فيها بلاد النوبة مرسلة معها عددا كبيرا من الكهنة والصناع ، والجنود المستوطنين ، مستهدفة من ذلكَ ان تكون هذه

الحملة فكرية ودينية وثقافية واقتصادية تربط بلاد النوبة ربطا محكما بمصر الفرعونية .

وقد اثرت هذه الحملة تأثيرا بالغا على شخصية النوبة التاريخية، ولذلك اي مشاهد للتاريخ المصري القديم لا بد ان يأتي الشمال السوداني ليشهد فيه عينات اثرية مما شهده في الارض المصرية ، لا بلا ن« النوبة » السودانية قد تفردت بكونها ظهرت في افق التاريخ كمملكة ذات شخصية مستقلة عرفت باسم مملكة «نبتا » ، وانها شهدت فيما بعد ظهور ممالك اخرى على ارضها اهمها مملكة « النوبة العليا » من الشلال الرابع حتى اعالي جزيرة سنار وكانت عاصمتها « سوبة » على النيل الازرق ، ومملكة النوبة السفلى من الشلال الاول الى الشلال الرابعوكانت عاصمتها دنقلة.

ولقد كانت الملكتان الاخيرتان مسيحيتان وقد بقيتا حتى الفتح العربي ، الذي كابد كثيرا حتى خلصت له الارض النوبية .

والظن التاريخي ان العرب الذين دخلوا افريقيا قد جاءوها عبر الارض النوبية من الشمال السوداني ، وهذا الظن مرجح ، اذا تذكر المراقب ان هذه الارض كانت صلة وصل للتجار قبل الفتح ، اولئك الذين يغدونها من الشمال ومن بر الشام لنقل الحبوب والعاج وغيرهما من المحاصيل الافريقية .

وقد اصبحت الارض النوبية الحقيقية الان جزءا من قاع النيل وجزءا من البحيرات التي قامت وراء السدود خلال مراحل تاريخية مختلفة ولم يبق من تلك الارض الا جزء بسيط يتمسكَ به اهله بالنواجذ .

واهل النوبة ــ يتكلمون لغة خاصة بهم هي اللغة النوبية الغنية بشعرها الشعبي ، التي استطاعت خلال الاكتساح الثقافي المستمر ان تحتفظ بوجودها على الارض النوبية ، وهذه اللغة هي من بقايا اللغات الفرعونية القديمة ، الا انها لم تتطور تطورا ذاتيا بدليل ان معجمهااللغوي يكاد ان يكون في معظمه معجما عربيا .

وهذه اللغة ذاتها تنقسم الى لهجتين مختلفتين ، واحدة يتحدث بها « المحس » والسكوت والفديجة واللهجة الثانية يتحدث بها الكنوز والدناقلة . وهي ــ هذه اللغة ــ نفسها القاسم اللغوي المشترك بين النوبيين في الجنوب المصري والنوبيين في الشمال السوداني .

واما الشخصية السودانية في الارض النوبية فهي اقرب الى الطباع العربية خارج المدن منها الى الطباع التي اصابتها ريح المدنية.

انهم يكرمون الضيف ذلك الكرم العربي ، وينزلونه في بيوتهم ، ويحسون انهم امام التزام قوي بقربه ، وتقديم كل اسباب الراحة له ، الا ان النوبة تفقد الكثير من طبعها نتيجة الهجرة المستمرة من الارض ، ونتيجة سفر كل شباب وشابات المنطقة عنها في رحلة مستديمة وراء « العيش » .

ويتميز « البرابرة » كما يسمونهم بالسودان ــ ضمن جملة الخصال الطيبة ــ بالامانة المتناهية ، وبالتعاطف الشديد فيما بينهم ، وبروح الاشتراكية الجماعية النابعة بلا الزام ، وبذلك التعاضد القويبين ابناء المنطقة ، حتى ليحس الواحد انهم مغلقون احيانا على انفسهم ، او انهم يرتبطون برباط خفي ، يطلب فيه من كل منهم ان يؤثر النوبي على عداه ــ ولا اعرف ان كان هذا الشعور وليد الاحساس الطبيعي للاقلية،

او هو وليد شعور تاريخي قديم مبهم انهمابناء قومية واحدة ، ولكن الاغلب هو كون منطقة النوبة ارضا قد اصابتها العزلة الجغرافية خلال مراحل طويلة من التاريخ العربي ، الامر الذي ادى الى عدم وصول الثقافة العربية الى اعماق النفس هناك .

مهما يكن فالذين ينزلون الارض « البربرية » في الشمال السوداني يحسون بلون مميز للشخصية الانسانية هناك ممثلة بولع الانسان الطبيعي بالشدو والنغم ، وبذلك الرقص الجماعي الذي تشترك فيه الفتيات الى جانب الفتية وهم يهزجون هزجا مشتركا موقعا تترددفيه عبارات« الصلاة على النبي » وعبارات دينية اخرى تكشف نوعا من الاتصال الروحي بالاسلام ، وممثلة بذلك الطراز من البيوت الذي يشغلون انفسهم في صنعها والاعتناء بها وبنقشها تلك النقوش التي لا يعرفها احد غيرهم ، وبتلك الرسوم التي فيها دقة الصنعة ومهارة الابداع .

ان تلك الشخصية التي يهزك فيها « نبل الاحساس الوطني » من اول وهلة ، ترى فيها ايضا ــ مما يميزها ــ رقة العواطف ، وحدتها وكيف تظهر هذه العواطف ــ عندما تجد السبيل ــ في كل مظاهر الحياة سواء منها المحزن او المفرح ، في الاعراس والمآتم ، في الرقص والزخرفة ، في الاقامة في البيوت او في الهجرة عنها .

ولقد بقيت الكثير من العادات الفرعونية في المجتمع البربري في الشمال السوداني ، « فالاطفال حتى اليوم ما زالوا يجمعون الحصى من الجبل ليقسموا بأسم الله فوق قبر الميت ، وتظل زوجة الفقيد في حدادها ثلاثة شهور لا تبرح مكانها الا في اليوم الاخير متجهة الى النهر لتغسل وجهها ، والموت بالنسبة للنوبي ليس نهاية حياة ... بل بدايتها ، لذلك يعدون للميت عشاءه يوميا .. نفس الاصناف التي احبها في حياته ونفس الكمية ثم يلقى بها للصبية والفقراء ويستمرون في اعداد الطعام مدةاربعين ليلة ــ نفس المدة التي كان ينتظرها اجدادنا الفراعنة ليكملوا فيها تحنيط الجثة ــ النوبة ، صدقي ربيع صفحة ٦١ ــ » .

و « البرابر » اكثر اهل وادي النيل — من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب، معرفة بمجرى النيل ، لا بل هم الذين خبروا انحرافات النيل ، وعرفوا تياراته ، وجزره الظاهرة وجزره المخفية ، عرفوا اين يعمق النيل فتجوز الملاحة معه ، واين تشح المياه فتصبح البحارة فيه خطرة ، وعرفوا القاع الذي تنبت فيه الاشجار النهرية ، وعرفوا اين تكثر التماسيح ، واين يفيض السمك .. انهم ادلة النيل ولعل رفقتهم التاريخية لهذا النهر ، وعيشهم المستديم على شواطئه ، وتعايشهم معه خلال الزمن قد الزمهم بالتعرف عليه رقعة رقعة ، لذلك ومن المستحسن اذا ركبت النيل في الشمال ان تركبه مع واحد من هؤلاء العجائز ، الذين تدخر قلوبهم اسرار النهر ، والذين يحدثونك عن النهر كمن يحدثك عن معبود عظيم .

وعندما تكون في هذه الارض لا بد ان تأكل من زادهم — وهذا امر عادي وفوق الطبيعي لانهم يتزاحمون في تقديم ما ملكت ايديهم —ولكنك وانت تأكل سوف تأكل بلذة لان اهل هذه المنطقة صناع ماهرون عرفوا فنون الطبخ ، وهم يقدمون اليك الاكل في قصاع فخارية والشراب في اكواب خشبية ، وسوف تأكل مع الجميع على الطبيعة في قصعة واحدة وسوف تكون الاصابع هي الشوك والملاعق ، ولا تنس وانت تفعل ذلك ان تشرب عرق التمر اذا احببت ، او « البوزة » ذلك الشراب الشعبي المسكر ولكن مع كل هذا لا تنس بحال من الاحوال ان تحضر فرح نوبي ، وان تسجل بحضورك صورة واضحة عن هذا العرس بعاداته البهية وبكرمه غير المعهود ، وقبل ان تستقل الطائرة لا بد ان تمر على تلك الاثار — شخصيا لا احبها — وان ترى فيها ، كما يقولون ،الماضي ، وان تشهد وحدة المنطقة ، او على الاقل وحدتها التاريخية ، فان ما سوف تشهده هنا لا بد ان تكون قد رأيت مثله في مصر .

افراح سودانية

افراح سودانية

يتبدى جوهر الانسان السوداني كلما ازفت مناسبة ، ذلك الجوهر الذي يصدر عنه مزاج حاد المشاعر يخفق بالفرح اذا جاءت الفرحة ، ويعتصر القلب بالحزن اذا جاءت الفاجعة .

ولكن جوهر هذا الانسان ــ بالنتيجة ــ جوهر طروب فيه نغم متحرك ، وفيه رقص محشود بالنشوة ، وفيه ضحكة عارمة تتغلب على احزان الدنيا ودموعها .

ويظهر هذا الجوهر اكثر ما يظهر في الاعراس السودانية ، تلك الاعراس التي تكون مناسبة ليظهر فيها القلب السوداني كل بهجته واعتزازه بالحياة ، والتي تنضح ايامها بكل مكرمات العرب الاوائل من بذل في اليد ، وافتخار بالنسب ، وسهولة في ابداء العواطف ، واخذ النفس بالصبر الجلود .

وعلى هذا « فالعرس » السوداني ليس بهجة فردية لمواطن من المواطنين ، وانما هو الخلق السوداني ، الذي تمتزج فيه مجموعة كبرى من العادات توضح الى حد بعيد اطار النفس والروح السودانية ، وهو فروسية كبرى تظهر فيها النخوة المعطاء ... تلك التي تهب من لدنها كل ما قدرت عليه الرجولة الكريمة .

وحتى يتصور المواطن العربي معنى هذا الكلام فلا بد من ان يجول جولته في تقاليد الفرح السوداني ، وان يسلك طريق البهجة مع عريس ارتضى ان تكون هذه التقاليد الاطار الذي يتحرك فيه شخصه وموكبه المبتهج :

يكفي ان يعلم من كان مثلنا من الوافدين على الارض السودانية ان التحضير ليوم الفرح الكبير يبدأ قبل شهر وبعض الشهر ، فالعريس هنا ومهما كان مستواه المالي — يعد الذبائح والروائح العطرية والكحل والحناء والاثواب المطرزة ، والاكسية الملونة ، ويتفق مع الماشطة التي تعد زينة العروس ليلة العرس وما بعدها ، ويقدم الهدايا من الفساتين والاثواب الى كل الاقرباء والى الماشطة نفسها ، ويختص هنا اقرباء العروس بالقدر الذي يظهر فيه انبساط كفه .

وهو اذا اعد ذلك ومضى الوقت ولم يعد ثمة الا اسبوع حتى يبدأ الفرح تأتي رفيقات العروس فيحملهن الهدايا على اطباق مغطاة في صواني كبيرة أو صدور فسيحة ، فيتهادى رفيقات العروس والهدايا على رؤوسهن ، وامامهن من يضرب الدفوف ، ومن يقرع الطبول ، ومن ينفخ في مزامير حادة الصوت ، ويسرن في موكب محفوف بالذين يرقصون من الاهل والاصدقاء ، ومزود — في القرى شرق السودان — بأولئك الفتية الذين يستعرضون جلدهم ورجولتهم فيتباطنون بالسياط ، حتى يصل الجميع بيت العروس ، فيستقبلهم اهلها بالابتسامات العريضة ، وبالترحيب الشديد ، ويقيمون لهم الوليمة حال وصولهم من طعام وشراب ، يحرص والد ووالدة العروس أن يكون من افخر الانواع والذها ، لان الذين حملوا الهدايا هم الرسل بين العريس والعروس وانه لا بد لهؤلاء الرسل ان يقتنعوا بمستوى الجود عند اهل العروس بنفس القدر الذي لمسوه عند العريس فيما حملوا منه .

وقبل ان تتم هذه الاحتفالات يكون العريس قد سلك الدرب الذي يسلكه كل العرسان ... اي البحث عن فتاة تناسبه وذات سمعة طيبة وجمال مرض فيخطبها ، ولا بد هنا من ان يكون المهر غاليا وان يكون العريس قد استعد لدفع هذا المهر ، ذلك يعني — نفسيا — مستوى آل

بيت العروس ، وانهم لم يعطوا بنتهم رخيصة للوافد الخاطب ،وحتى لايظهر الامر بمظهر البيع والشراء ، فأن العفاف العربي يتحرك هنا فينقـط الاب ابنته شيئا من المال ، وقد يكون ما تأخذه العروس من ابيها مساويا للمهر الذي دفعه هذا العريس .

وكأن والد العروس يقول للعريس بلغة صامتة لسنا بحاجة الى اموال دفعتها ، وهاك ما دفعته ، ولكن عليك ان تعلم ان هذه البنـت ليست رخيصة ، وان اهلها ليسوا ممن يرضون المال بدل الولد ، وان اباها ليس من ذلك النفر الذي يقبل ان تخرج بنته من بيته وهي خالية اليـد ، فها هو قد حملها — وهي تخرج — نفس القدر الذي دفعته لبناء البيـت الزوجـي .

ثم يبدأ اهل العروس شد حقويهم مثلما يقول الاعراب ، يعزلون العروس عن العين في مكان قصي ومنفرد ، ويسلمونها لبعض القريبـات والماشطة ، فيبدأن بتحضيرها ، فيدخن جسدها حتى يكسب مزيدا مـن الليونة ، وحتى تتشرب مسامه بنفح الطيب من المسك والبخور والاخشاب الكريمة ، ويجدلن شعرها ضفائر بصنعة محكمة ، وتتولى الماشطة مـا عدا ذلك مما هو معروف عند نساء العرب ، ثم تلبس العروس ابهى لبس — ولكن القبائل العربية — التي انقطعت عاداتها عـن عادات العصر لا ترتدي العروس ثيابا في القسم الاعلى ولا يستر جسدها هنا الا الحلـي الذهبي والعاجي والفضي الثقيل — .

واما العريس فانه يلبس ثيابه البسيطة ولكنه يضع في يده سوارا من الحرير فيه خرزة زرقاء يسمونها « الحرشاية » وسوارا عريضا مـن الفضة او الذهب يسمونه « جبيرة » والتي تقلد العريس السوارين امراة ذات حظ وافر يسمونها حظيظة ذات مال واسع ، ومعروفة بكثـرة الانجاب ، وبأنها ذات حشم وخدم .

ويستمر الوضع كذلك حتى اذا جاء يوم الدخلة فيجتمع اهل العريس واصدقاؤه ، ويركبونه فرسا مطهما ، ثم ينطلقون به الى بيت العروس في زفة عارمة تدوي فيها الطبول شديدة ، وترتفع اصوات المزامير حادة مفناجة ، ومعها الدفوف تهتز بخشيش يصنع تلك الجلبة المسرة .

وهنا يحمل العريس بيده سوطا يهزه بين حين وآخر علامة على الرضى بمسيرة الموكب وكلما هز السوط ردد الكلمة المعهودة « ابشر » كأنه بهذه الكلمة يطمئن نفسه ، وكأنه يقول للذين معه كل شيء على ما يرام ، واما الشباب هنا فلا بد مرة ثانية من ان يستعرضوا مقدرتهم وجلدهم ورجولتهم فيتباطنون امام الموكب بالسياط التي تفرقع في الهواء ثم تنزل على الاجساد السمراء ، فلا يهتز واحد من الذين يتباطنون وكأن السوط نزل على صخر وليس على جسد من لحم ودم .

وصديقات العروس وبنات العائلة من اهل العريس والقريبات من العائلتين لهن هنا ايضا دور كبير وهو دور الراقصات ، فهن لا بد من ان يحجلن امام الموكب ، ولا بد من ان يرقصن رقصات ناعمة خفيفة تلفت الانظار ، وتضيف للموكب سحرا وبهاء ، وجلالا — حسب مفاهيم العرب الغاربة — .

ويظهر — بعد كل هذا الموكب — وكأنه موكب امير هندي عظيم خاصة وان هذه الفرس المطهمة تقودها بنتان واحدة عن اليمين وأخرى على الشمال ، وان الموكب يتزايد ويتضخم كلما مضى في الازقة والحواري وصولا الى بيت العروس .

واذا وصل العريس في موكبه ، فان هذا يعني الايذان بمزيد من الابتهاج في بيت العروس ويبدأ في زفها في بيتها — ولكن البعض يؤثـرون الزفة في الشوارع على غرار زفة العريس وخاصة خارج العواصم والمدن —

وزفة العروس تعني الشيء الكثير ... ان العروس انثـى وان اروع ما في الانثى انها انثى ، ولا بد مع هذا ان تظهر انوثتها في تلك الليلة التي تقترن فيها الانوثة بالذكورة ذلك القران المقدس — وهي امام هـذه التجربة لا بد ان توضح في شخصيتها احسن ما عندها . فعدا المظهر الذي تظهر فيه وقد ارسلت شعرها جدائل ناحلة دقيقة ، وصبغت شفتها بذلك اللون الاخضر الشبيه بلون « الوشم » ، وتقلدت الذهب عقودا واقراطا ،

وحفت بها النسوة من كل جانب مظهرات افضل ما عندها ، فأنها لا بد ان ترقص حتى تظهر فتنتها حركة وايماءة وقدرة .

ورقص العروس السودانية ليس شبيه « بالتجلية او التجلي » عند عرب بر الشام — ذلك الذي يقصد منه اظهار العروس بطريقة بسيطة امام العريس واخوانه ، ولكنه نوع اهم من ذلك ، لان العروس السودانية ترقص امام جميع من حضر من رجال ونساء ، وهي ترقص خارج العواصم عارية الصدر ، وترقص في العواصم بلا ثوب ، وهي عندما ترقص لا تقيد حركتها تلك الحركة التي تظهر جمودا واتزانا غير مطلوبين كما هو الحال في العروس — الشامية — وانما هي تعطي فرصة للعيون كي تتسبل وترتل اغنية انثوية صامتة ، وتعطي فرصة للوجه حتى يظهر معنى النشـوة عندما يمتلأ القلب بها ، وتعطي فرصة للجسد كله كي يقول كل عضو فيه كلمة انثوية ، تعبر عن رغبة او حاجة او شهوة كامنة او ظاهرة . فهـي ترقص بشدة اكثر مما يرقص لها الراقصون والراقصات ، وهي عندمـا ترقص تضع في حسابها الباطني انها امام امتحان لانوثتها ، وان مئة عين وعين تراقب خلجاتها وتحسب لكل حركة من حركاتها ، وان هذه العيـون ستشهد بالمدى الذي تستطيع ان تستمر فيه العروس واقفة وقفة الانثى وهي تعطي ما عندها .

ولذلك ترقص العروس ايام اسبوع الفرح كله ، وكلما جاء واحد او زائر تستطرد في الرقص ، وعندما يأتي غريب — مثلي — فانها لا بد ان ترقص رقصا تتجلى فيه كل القدرات ، لانها هنا امام امتحانين ،امتحان الانوثة في شخصها ، وامتحان المراة السودانية في مظهرها .

ولان العروس — خلال الايام السبعة — تقف هذا الموقف النفسي فانه لا بد ان يغمى عليها وهي ترقص ، ولا بد ا نتسقط على الارض من شدة الاعياء ، ومما استنزفت من نفسها من حول وطاقة .

انه من العيب ان يكون الزائرون قد جاؤوا والعروس لا تحييهم تلك التحية الراقصة حتى ولو كان قد سبق لها ورقصت الساعات قبل مجيئهم ولا عذر هنا امام العروس الا ان تظهر اعتذارا عمليا وهو ان تسقط او يغمى عليها فتاخذ صك التبرير .

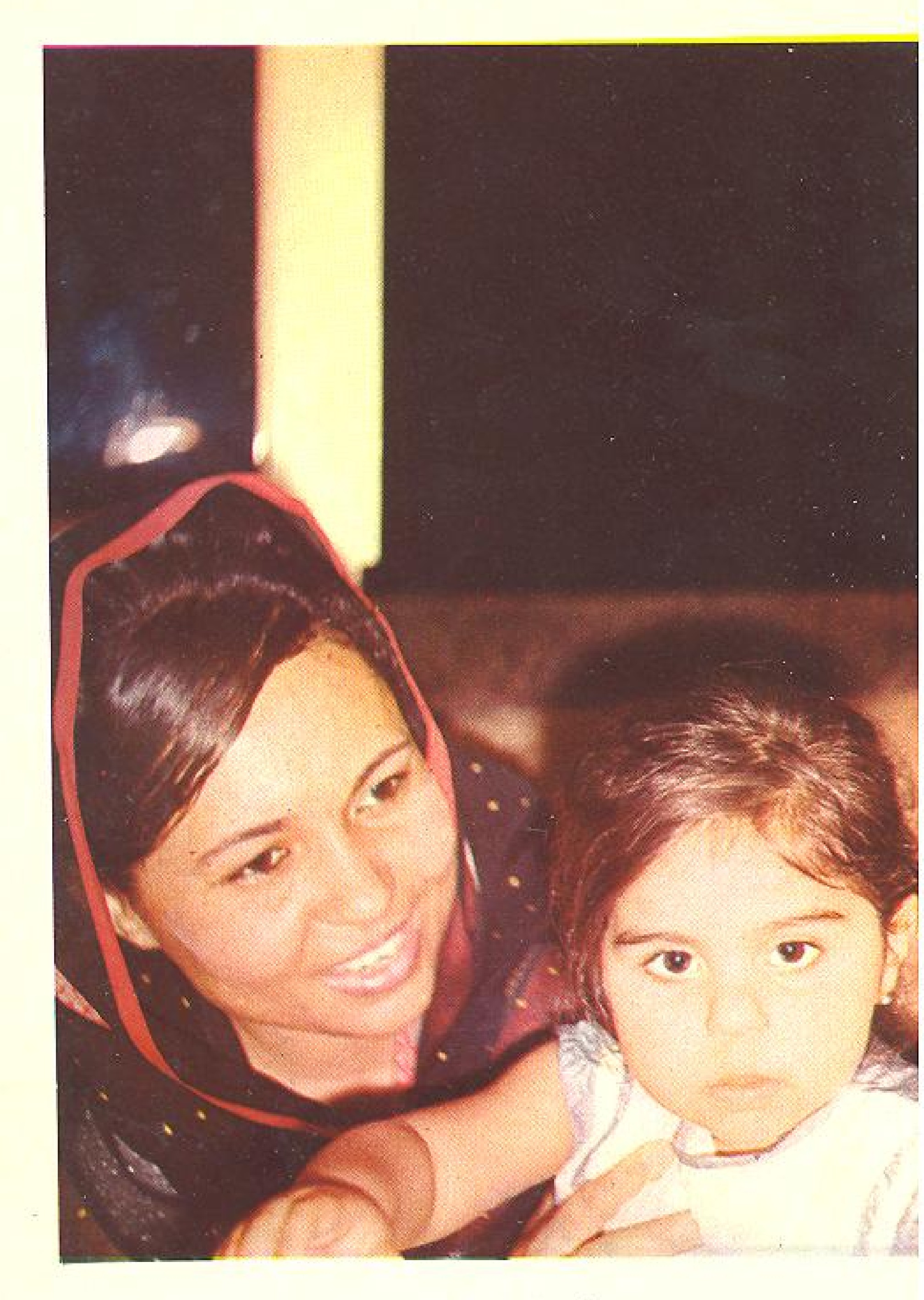
وقد لا ترقص العروس وحدها هنا ، فقد يأتي دور شقيقات العريس والمقربات من النسوة فيرقصن نفس تلك الرقصات الطويلة الساحرة . . . التي يتهادين فيها كالحمام حينا وكالغزلان حينا ، والتي يظهرن فيها ايضا الكثير مما تخبىء الانوثة في الجسد ، ولقد كانت العادة القديمة ان تكشف المراة وهي ترقص عن الكثير من جسدها ، خاصة شقيقات العريس ، الا ان هذه العادة قد انتفت الان .

واستطرادا نقول انه في الليلة المشهودة ليلة الدخلة فأن العريس يدخل على عروسه بعد العشاء ومعه شابان من اصدقائه ، والاغلب ان يكونا قريبين من اقربائه وهما الوزيران فتصفق له النسوة تصفيقا شديدا، ويرحبن به الترحيب كله وسط موجة عارمة من الدعاء بالتوفيق ، ثم يجلسنه مع وزيريه على عنكريب — وهو سرير خشبي — حتى اذا مضى

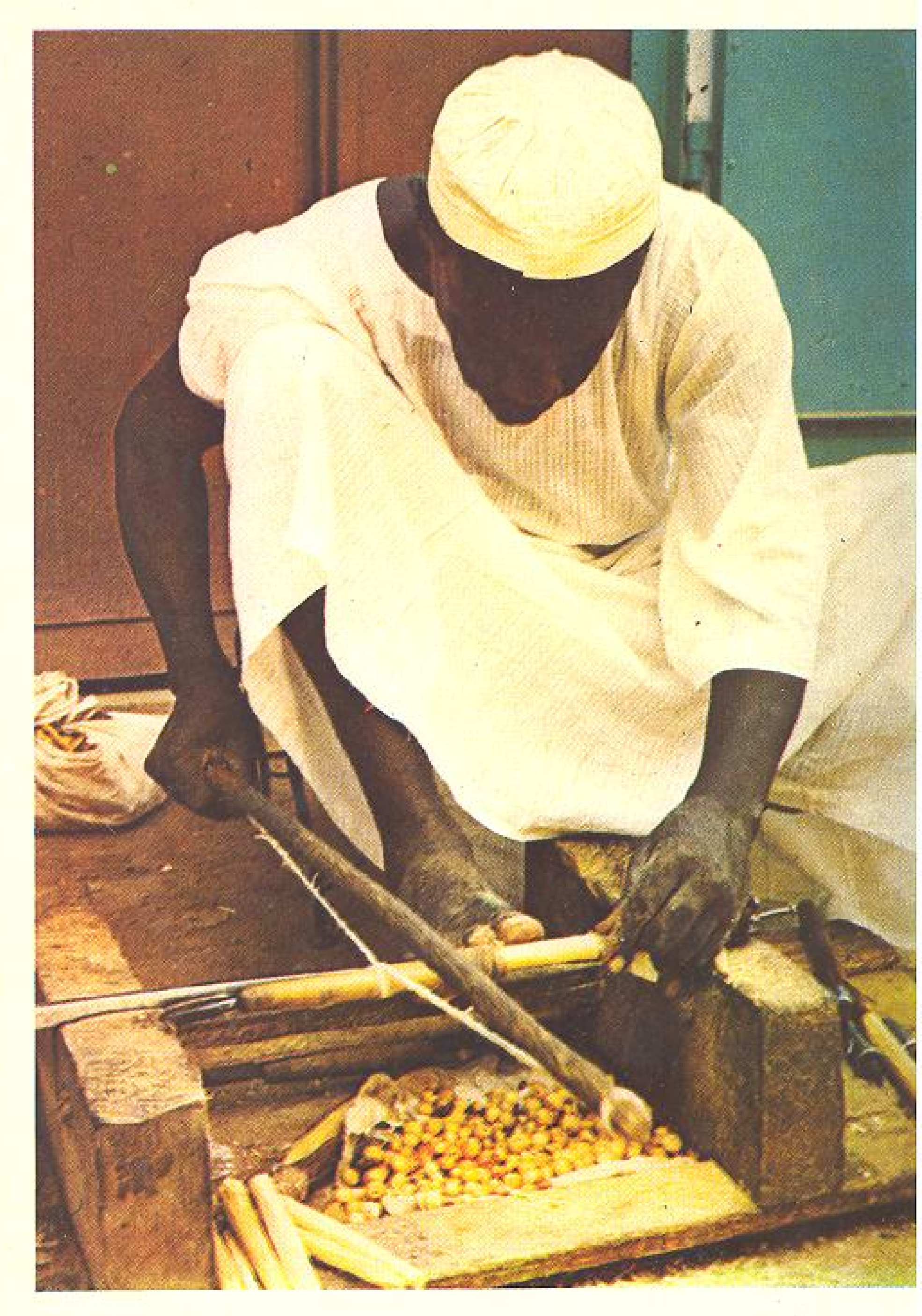
يتبع في صفحة ١١٥



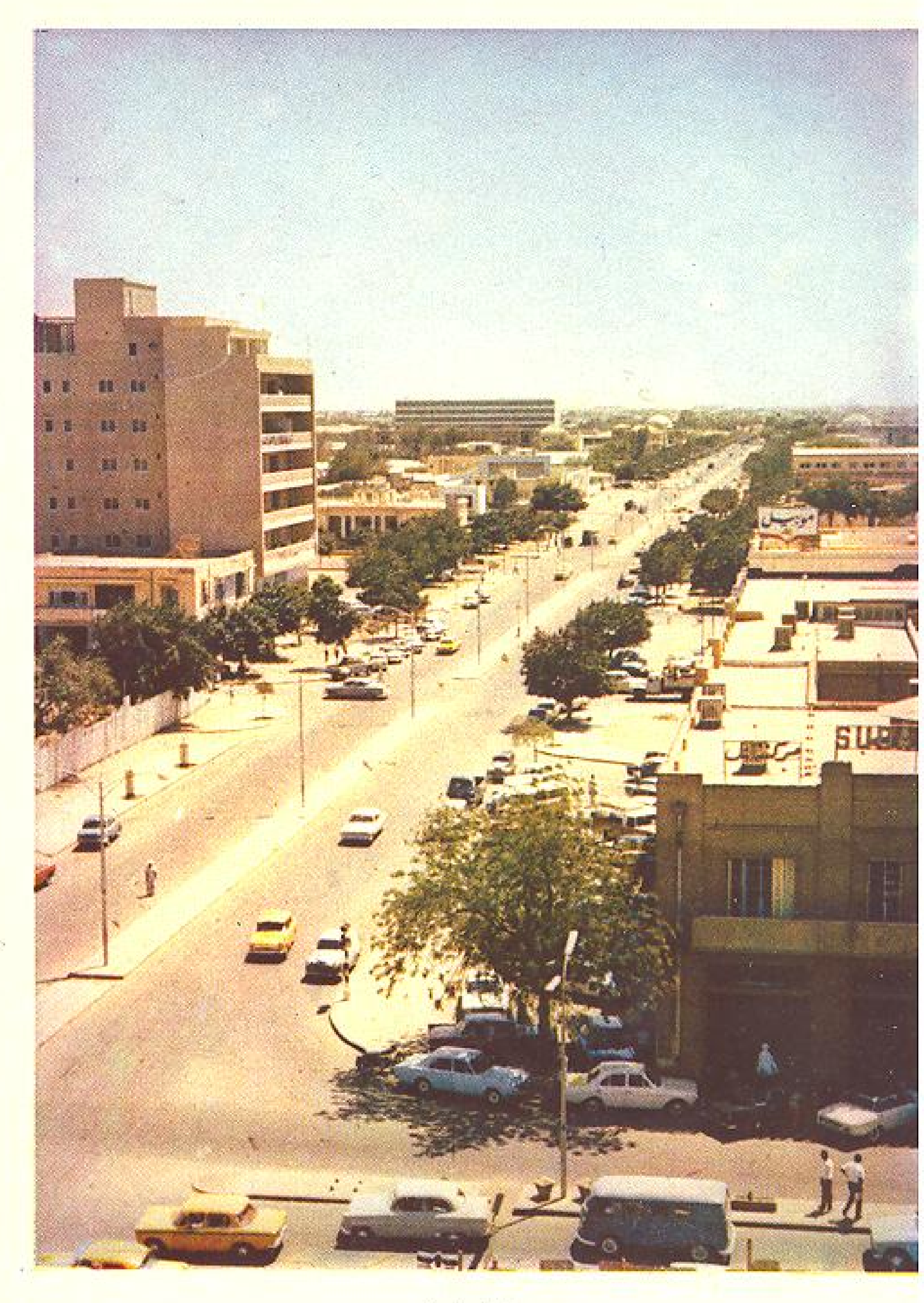
الخرطوم : معانقة الربيع



أمومة سودانية



سوداني في سوق العاج .. ام درمان



الخرطوم : قفزة فى العصر



جامعيتان من السودان عطر الماضي ونفح الحاضر



الرجولة والانوثة في عناق الابد



نشوة راقصة على الطريقة السودانية

انقاض الزمن

وقت قام فهدى الماشطة هدية ، ووزيرتي عروسه هدايا اخرى مالية ، ثم يتقدم من عروسه فيقطع رهطها ، وهو السير الجلدي الذي يربطنه النسوة في القسم الاسفل من جسدهن ، ثم يرقص عروسه رقصا فيه مداعبة ، وفيه دلع ويعرف هذا الرقص بالجلع .

وهنا وفيما العروس ترقص امام عريسها ، والعريس يدور من حولها يبرز اصبع ذو ظفر ينخز خاصرتها به ، فتتمايل لذلك وتتثنى ،فيعيد الكرة من خاصرة الى اخرى فتتعاطف عليه ، ثم تتلوى وتدور دورة من حوله وهي تتثنى له وعنه ، وتتحرك حركات رشيقة مثيرة ، وكلما خزها مرة مالت عنه وهي تطلق صرخات انثوية فيها صوت لا يطلق الا اذا التقى رجل وامراة ، وتصيح بكلمة « واي واي » شاهقة تلك الشهقات الساخنة، زافرة اخرى فيها همس امراة يأتي من الاعماق .

وفي هذه الاثناء تكون جميع النسوة يغنين بصوت جماعي عذب للعريس والعروس ، مطلقات ابهى الصفات على الاول ، وارق الصفات على الثانية مستعملات اوصاف المروءة والشجاعة ورفعة النسب ،والرقة والجمال والخصب .

ويستمر الحال هكذا ثلاثة ايام او سبعة ، وعند البعض عشرة ايام ، ويكون اهل العريس معه في ضيافة اهل العروس وهنا لا تنتهي الولائم في الصبح والظهر والليل ، ولا ينتهي البذل من آل العروس ومن العريس نفسه .

هذا في المناطق الريفية الشديدة الصلة بالتقاليد والعرف والعادة، الا ان العواصم قد تخففت من الكثير من هذه العادات ولكن دون الخلاص من اصولها ، لا بل ان بعض العائلات في ام درمان والابيض وغيرهما ما زالت تصنع كل هذا وتزيد عليه الكثير من التفاصيل الحافلة .

واذا احببنا ان نستكمل الصورة فانه ينبغي ان نتجه الى الشمال ... الى مناطق اهل النوبة او البرابرة كما يسمونهم هنا في الارض السودانية :

اضافة الى ما ذكرنا فأن العريس هنا ليلة الزفاف لا يحمل العصا او الكرباج وانما ايضا السكين ذا الحدين ، وهو عندما يسير في زفته يوجد معه من يحمل له الكرسي ليجلس عليه اذا تعب ، ومعه ايضا

حامل المبخرة الذي يمنع عنه الحسد ، وهو قبل ان يذهب الى بيت عروسه يتجه الى النيل للتبرك بمائه .

واما العروس فانها تظل بغرفة صغيرة — مع صديقاتها وقريباتها — قريبة من الديوان الكبير الذي يقام فيه الفرح ، في حين ان العريس يبقى طوال الليل بعيدا عن عروسه حتى اذا اشرق الفجر اتجه اليها وصحبها الى النيل فيتبركان بالماء ويأخذان النبات الاخضر اليانع عن ضفافه حتى يصيب الاشراق والبهجة حياتهما .

وبمجرد ان يدخل العريس حجرة عروسه يتسابق معها في اختطاف حفنات الذرة من طبق موضوع بقربها ويأخذ في رشمه عروسه ، والعروس تبادله الفعل تيمنا بان يعطي كل منهما الاخر الخير الوفير ، المراة الذرية ، والرجل العيش الرغيد .

واذا مضى اسبوع فأن على العروسين ان يتجها مرة ثانية الى النيل للتبرك فاذا فعلا ذلك فانهما يذهبان لزيارة جارهما الذي يسكن في الطرف الايمن من بيتهما .

وفي هذا اليوم ايضا تحضر سيدة صديقة او قريبة للعريس عصا على رأسها عجنه من « التمر حنا » فيرفعها العريس بيده ويتجه بها الى والدة العروس ، التي تعطيه « النقوط » وتضعه في نفس المكان الذي فيه « التمر حنا » فيحمل العريس العصا وما عليها ويقدمها لوالديه تعبيرا عن الوفاء ، انه وما يملك ويكسب ملك لوالديه .

ولا شك ان مجموعة هذه العادات ليست عربية خالصة وان يكن الكثير منها من الموروث العربي ، الا ان الكثير ايضا قد جاء السودان من الماضي الفرعوني ، وخاصة فيما يتعلق بعادات اهل النوبة ، في حين ان عرب الشرق والغرب قد كسبوا بعض العادات من الاوساط الزنجية الافريقية الخالصة .

الا ان ما يمكن ترديده هنا ان هذه الاحتفاءات بالنفس ، وهذا العرض لفن الانسان الجميل في الرقص وفي الجود وفي الكثير من العادات ما هو الا تعبير عن الروح الطروبة في النفس السمحة ، ان التي تبتهج بالحياة وتعبر عن بهجتها هي النفس المشرقة التي ترى الوجود جميلا في كل مظهر من مظاهره .

في دار التاريخ

هذا الانسان السوداني الذي عرفنا بعض ملامح صورته الخصبة ، وبعض خواطر نفسه ليس ابن الحاضر ... انه ابن تراث عريق ، وتاريخ عميق الجذور ، وهو تراث تكثف خلال مراحل نضال انسانية طويلة ، وتاريخ محشود بالمعارك والمواقع ، وزاخر بالخطى الحثيثة للوصول الى مرتبة تليق بانسانية الانسان .

ولا شك ان الارض السودانية ، وهي الوعاء الذي احتوى الانسان قد ساعدت بمناخها الطيب ، ونتاجها الوافر على ايجاد الانسان فيها منذ فترة ضاربة في القدم تصل الى ٢٥٠ الف سنة على حد تحديد علماء التاريخ ، هي نفس الفترة التي عاش فيها انسان « النياندرتال » في اوروبا الغربية .

وقد اوضحت كشوف هذه المرحلة ان هذا الانسان ليس انسانا بدائيا بالدرجة التي قد يتصور من يحسب حساب الانسان قبل ٢٥٠ الف سنة ، ذلك انه قد كشف عن هذه المرحلة حوالي اربع آلاف آلة حجرية من مختلف الاحجام والانواع ، لها بالطبيعة وظائف مختلفة ، مما يوضح ان انسان السودان الاول قد استطاع من خلال البيئة والجهد ان ينمو بقدراته العقلية ، وان يكون ــ بالنسبة لروح المرحلة ــ حيث يجب .

ومع ان هذه المرحلة ما زالت في ذمة الزمن ولم يكشف عنها الكشف الذي يوضح الى اي مدى وصلت حضارة الانسان في هذه البقعة وغيرها من بقاع العالم ، الا انه من الواضح جدا ان هذه الفترة قد اورثت الكثير من نتائجها الى مرحلة لاحقة ، وانها كانت لبنة في مدماك التطور الانساني على الارض الافريقية . خاصة اذا تذكر من هو بصدد هذه المرحلة بعض الاشياء والالات التي تعبر عن بهجة الانسان بالحياة ، او قدرته على ان يظهر ببعض المظاهر التي نعتبرها اليوم من مظاهر العصر والمدنية ، فقد وجدت في الحفريات في « خور ابي عنجة » وفي « وادسرو » شمالي ام درمان عقود من حجارة راقية ، وامشاط من العاج ، واوان فخارية ذات رسوم وزخرف ، الامر الذي يكشف على ان المرحلة قد نضج فيها عقل المراة الى حد انها اخذت تتزين لفتنة الرجل ، او لاظهار انوثتها ،

وان الرجل والمرأة كانا يسرحان شعرهما ، وانهما سلكا في ذلك مسلكا ذكيا حيث اصطادوا الفيلة وقطعوا انيابها وصنعوا من عاجها الامشاط، وان ابناء هذه المنطقة قد وصلوا الى مرحلة تقتضي وضع طعامهم واشيائهم الاخرى في قصع واوان ، على ان تكون هذه الاواني مشبعة للذوق الفني — بالحد الذي وصل اليه — من خلال هذا الزخرف وهذه الرسوم التي باستمرار تعبر عن قدرات مميزة للانسان ، وعن مستوى عقلي ووجداني .

الا ان الفترة التي اوضحها التاريخ من شخصية السودان هي المرحلة الفرعونية ذلك ان مجرى النيل واحد ، والارض وان قامت الحدود الان ، واحدة ، وظروف الانتاج والمناخ متشابهة ، ولا بد مع هذا ان يقوم نسق واحد للحياة والانسان على امتداد تلك الارض ، او ان يقوم نسق شديد التشابه قريب الصلة تكون حصيلته انسان الوادي، او في اسوا الحالات — وهو كما يقول المؤرخين — ان يحصل نوع من التماس ثم التمازج بين انسان مصر وانسان السودان ، بحكم الجوار الحميم ، وبحكم حاجة كل طرف منهما للاخر .

ولو رضينا بالترجيح الاخير — وليس امامنا مبرر لرفضه — فان التحليل البسيط للامور يقول ان السودان كان مخزنا للحضارة الفرعونية، فهنا على الارض السودانية الثروة الحيوانية المتنوعة ، وهنا — مع متطلبات بلاد متحضرة — كل ادوات الرفاه ومظاهر التحضر مثل ريش النعام والعاج والابنوس والمعادن والصمغ ، وهنا كل الحيوانات التي تظهر الجاه والقوة والتباهي — وهي من صفات المجتمعات القديمة — مثل الاسود والنمور والقردة ، تلك الحيوانات التي كانت توضع في القصور ، او تسلخ جلودها ليقتنيها اصحاب الشأن من الساسة والتجار وكبار رجالات المجتمع .

فاذا كان المجتمع في مصر منفصلا عن مجتمع السودان ـ مع ان كل الحقائق التاريخية ضد هذا الانفصال بدليل ان الممالك القديمة الفرعونية قامت كلها على ارض مصرية وسودانية ـ فان ما يذكر هنا ان فراعنة مصر احسوا بحجم العطاء الذي يمكن ان تعطيه بوفرة الارض السودانية، وبداوا على هذا الاساس رحلة الاتصال التاريخي عبر التجارة .

والمعروف ان الفراعنة ـ مثل اي شعب صانع حضارة ـ كانوا كلما اتجهوا نحو ارض يصحبون معهم كل رسل حضارتهم من كهنة وفنانين ومهندسين ، وكانوا يحملون مع السيف الفكر في محاولة للسيطرة الاجتماعية والدينية بنفس القدر الذي يسيطرون فيه سيطرة عسكرية .

وعلى هذا كانت موجات الفراعنة تتقدم نحو اواسط السودان والى بعض اجزائه الغربية والشرقية ـ ذلك ان الجزء الشمالي كان بالضرورة وكما هو مقرر جزءا من الامبراطوريات المصرية المتعاقبة. وكانت كل موجة تقيم نوعا من الصلات السياسية والعسكرية والروحية ... صحيح ان اجزاء غير صغيرة من الارض السودانية كانت تقاوم هذه الموجات ، ولكن المعروف تاريخيا انه لم تكن هناك معارك طاحنة بين الوافدين والمقيمين ، والمقرر ان القلاع المصرية التي قامت على الارض السودانية قد اوجدت حولها عددا كبيرا من السكان المصريين استوطنوا الارض السودانية ، وامتزجوا باهلها ، فأختلطت عاداتهم بعادات المقيمين، وتوحدت ـ في مرحلة قادمة ـ العقائد فأمتزجت الحياة المصرية السودانية امتزاجا مصلحيا وروحيا وفنيا ، لا بل ان الاتصال قد بلغ حدا روحيا كبيرا عندما اصبح الكثيرون من الفراعنة يؤمنون بالاله السوداني الاكبر «خنسو» وقد اظهرت النقوش هذا الامتزاج والاتصال من خلال صور الالهة السودانية تساعد الاله المصري اوزريس ليصل الى مراتب علوية . الا ان هذا لا يعني كله عدم استشعار اهل السودان نوعا من الاحساس القومي ـ كانت تسمى ارضهم انذاك بلغة المصريين ارض كوش ـ فلقد كانوا يتحركون بين حين وآخر في حركات تقاوم الوافدين ، مما اضطر الفراعنة الى انشاء مزيد من القلاع العسكرية على امتداد الارض التي كانوا يتعاملون معها ، بنفس الوقت الذي كانوا يقيمون فيه المعابد ، ولم تزل الارض السودانية تحتضن اثار تلك الفترة خاصة في « دنقلا » و « نبته » وبوهين ، وجبل « البركل » .

وقد مضت هذه المرحلة لتعقبها مرحلة مهمة في التاريخ السوداني، تلك التي برزت فيها الشخصية السودانية ، وحاولت جذب مركز التجمع السياسي والمدني والديني والحضاري من طيبة عاصمة الفراعنة الى « نبته » عاصمة مملكتهم الحديثة .

هنا قامت مملكة « نبته » قبل الميلاد بـ ٧٥١ سنة ، وازدهرت ووضحت شخصيتها ، وظهر نفوذها في عهد الملك كشته ، ذلك الذي استطاع ان يحمل السيف السوداني وان يخرج به الى الارض المصرية فيجعلها تستظل بظل ملكه فيسيطر بذلك على مقدرات المنطقة .

لكن كشته لا يمثل العهد الذي ازدهرت فيه الشخصية السودانية القديمة بنفس القدر الذي يمثلها فيه ابنه الملك بعانجي الذي استطاع ان يمد سلطانه على كل ارض مصر وان يوحد وادي النيل من اقصى شماله الى اقصى جنوبه .

وفي ظل هذا الملك السوداني عرفت مرحلة مهمة وخطيرة من التاريخ الانساني الديموقراطي ، وعرفت مرحلة رفرف فيها السلام والعدل على منطقة كانت ما زالت مسودة بمنطق السيد والعبد .

ومما يذكر هنا عن هذه المرحلة التي قادها هذا الملك الصوفي انه كان حريصا على ان يفتح الارض المصرية وان يسيطر على كل الارض السودانية دون اراقة دماء ، وكان ميالا للتواضع ، وزاهدا في الملذات ، ومعطيا روحه وقلبه للالهة .

ولعل سبب حرص هذا الملك على السيطرة السياسية بلا حرب عنيفة وغاضبة ومدمرة هو احساسه انه ليس ازاء عدو قومي ، وانه لا يجوز لابناء الوطن الواحد — حتى وان قامت فيه دولتان — ان يستشعر كل منهم انه ازاء وطن آخر وشخصية تناصبه العداء ، وان مد ظل الحكم على ارض الوطن كله لا يتحقق من خلال عمليات الدم والعنف ، هذا رغم اصرار المؤرخين على اعتبار الملك « بعانجي » من العبقريات العسكرية القديمة ، مما يؤكد سلامة النظرة القائلة ان الملك بعانجي كان امام رؤية تاريخية متقدمة ترتفع فوق المشاعر الاقليمية الى مستوى الشعور القومي.

وقد يزيد في هذا التاكيد الادراك بان هذا الملك كان صاحب روح مبدعة ، وانه كان يتوسل الى آلهته بالشعور الصوفي ، وانه كان وهو يفعل ذلك يعبر عن معان عميقة في نفسه الطموحة ، فيها تعبد وفيها نظرة سياسية ، وفيها عقل خلاق مؤمن بالكلمة :

« هيء لنا الطريق امامنا »
« ودعنا نحارب تحت ظل سيفك »
« لان الطفل اذا ارسلته انت »
« استطاع ان يتغلب على من »
« يتغلب على الجيش المتلاطم »

ولا غرابة — في هذه النظرة — اذا تذكرنا ان الروح الفرعونية بما تعنيه من حضارة وثقافة كانت قد حلت في الارض السودانية من قبل ، وانه قد تم تمازج بين روح الفراعنة وروح السودانيين القدماء ، وانهم قد احترموا آلهة بعضهم البعض ، وانهم قد تمثلوا في سلوكهم الكثير من عادات بعضهم البعض ، وانهم بهذا التمازج اصبحوا يعبرون عن رؤيا مشتركة للارض والانسان والوجود .

لذلك لم يكن امام هؤلاء الملوك الذين استطاعوا بناء دول جديدة على انقاض الممالك الفرعونية الا ان يعتبروا — بحق — انفسهم امتدادا للفرعونيين ، وان يخطوا نفس الخطى ، ويتبعوا نفس المناهج والاساليب وان يعتبروا الدين والثقافة واللغة والعادات مواريث الخلف عن السلف .

والذين يطالعون صورة الآثار في الارض السودانية يستطيعون ان يخرجوا بالكثير مما اوردنا وخاصة في القسم الشمالي وفي اواسط السودان حيث الاهرامات ، والقبور التي هي عينات من صور الفراعنة .

ولكن هذه الحضارة ــ المسماة حضارة وادي النيل يطالمون انطلاقا من نظرة تاريخية ثاقبة ــ لم تستمر ، فبعد الصعود للقمة يبدأ الانحدار ، وهذا ما تم في أرض كوش او ارض السودان ، فبدأ الظل السوداني يتقلص من ارض مصر ، واصبحت نبتة اضعف مما كانت ، ولم تعد هيمنتها الفكرية والسياسية قائمة ، فقد جردتها بعد وقت مدينة مروى الحيثية ، واصبحت هي العاصمة وقد تفككت العرى الوثيقة لحضارة وادي النيل حيث اخذت اللغة الفرعونية تتلاشى ، صحيح ان مملكة مروى الوريثة لملكة نبتة قد استطاعت ان تقاوم وان تصمد للزمن ، وان تحاول بعث كل الامكانات المتوفرة لدى السودان ، وان تشيد معالم ــ اصبحت اثارا واضحة ــ تتحدث عبر الايام عن محاولة هذا الصمود الحضاري الا ان اسباب الانهيار كانت هنا اقوى من اسباب البقاء ، وكانت اسباب الانفصام في الوادي اكبر من طموحات الرجال .

أما ما يمكن الوقوف عنده هنا فهو المستوى الرائع الذي صمدت عليه « مروى » وهو مستوى يحدد من جديد الكثير من ملامح الوجه السوداني ، فقد جهد الانسان السوداني القديم هنا ليكون في طليعة ابناء العصر ، وقد كان كذلك اذا وضعنا في الحساب صورة مدينة مروى نفسها وموضعها في المدينة العصرية ، واذا رأينا ان هذه المدينة كانت تحفل بكل ما يمثل قدرة الخلق والصنع والانتاج والترف الحياتي والترف الذهني .

ومن المهم ان يذكر ان « مروى » كانت صاحبة نفوذ فكري في افريقيا فهي قد اخترعت الكتابة ، بعد أن زالت الكتابة الهيروغلفية ، وان لم يستطع العلماء حتى الان فك رموز هذه اللغة ، وانها كانت من البلاد صاحبة الحضارات التي تفتح نوافذها على مدنية عصرها ، فهنا يذكر ان « المرويين » قد اتصلوا بالاغريق ، وانهم تبادلوا معهم المعرفة والعلم والصنعة .

اما كيف تهدمت هذه الحضارة ، فانه وكما هو مقرر ضعفتذاتيا، وبدات الغزاوات من الاطراف تأتيها ، فتوجه لها الضربة عقبالاخرى حتى كان الاكسوسيون فهاجموا المملكة ، ودخلوا مروى العاصمة عـــام ٣٥٦ ميلادية فالتقى بهجومهم هذا سبب الانهيار الداخلي بسبب الانهيار مـــن الخارج ، وتوحد السببان حتى كانت النهاية .

وقد ظهرت هذه النهاية في البداية بشكل التفسخ الضخم الــــذي اصاب جسد المملكة الكبرى الموحدة ، والذي انتهى بثلاث ممالك يحكمها بالدرجة الاولى النوبيون وهذه الممالك هي مملكة النوبة في الشمال ،ومملكة المغرة ، ومملكة علوة .

ولقد كان العصر ــ آنذاك ــ عصر المسيحية فتبارت البعثـــات امام الضعف العقائدي والحضاري في اقتحام اسوار تلك الممالك الهشـــة فأستطاعت ان تقتحم مملكة النوبة في الشمال وان ترفع علم النصرانية فيها ، ومن ثم ان تأتي الى مملكة علوة فيتحقق نفس النجاحالذي لقيته في مملكة الشمال .

وهنا بدا تحويل كل المعابد الموروثة الى كنائس ، واخذت الكنيسـة القبطية المصرية ــ التي سبقت في الوجود ــ تنتزع المبادرة من الكنيسـة الاغريقية ــ بحكم الجوار والالفة التاريخية ــ .
واستطاعت المسيحية ان ترســــخ في ارض النوبـــة وفـــي مملكـــة علوة ، واستطاعـــت ان تظهـــر كـــل المعالـــم التـــي تدلك على الحضارة المسيحية ، وقد استمر الحال هكذا حتى قامت دولـة العرب في الحزيرة العربية ، وحتىبدات تمد ظلها على المنطقة وصولا لمصر، فتهيأت كل الاسباب لانتهاء عصر سوداني وقيام عصر آخر ــ جزء من عصر عربي ــ وبمجرد ان سقطت الحضارة القبطية المسيحية امام الفتـــح الثقافي الاسلامي في مصر ، سقطت ممالك النوبة الثلاث . وكان هـــذا السقوط جاء ليحقق وحدة التاريخ والمصير على ارض وادي النيل ،وليقول لكل الشهود عبر الزمن انه لا يمكن ان يكون هنالك انفصام بين الشمال والجنوب : سواء كان هذا الانفصال ثقافيا او دينيا او سياسيا .

رحلة العروبة للسودان

لم يكن ثمة مصير للارض السودانية الا المصير العربي ، وطالما تفتح النبت الديني الحضاري العربي في الجزيرة العربية وامتد الى رحابه الطبيعية في العراق والشام ، ثم عبر الى مصر عبر دهليز سيناء ، لم يعد ثمة مفر من ان يبلغ الشوط مداه ، وان تمتد غصون الشجرة العربية الى الارض السودانية .

صحيح ان السودان لم تصله الثقافة العربية ، ولم تتفتح على ارضه زهراتها الا في وقت متأخر الا ان ذلك لم يعن بحال عدم وحدة المصير للارض السودانية مع بقية الارض اللصيقة بها ، المتصلة فيها ، التي لا تعرف ان تطل بنفسها على غيرها .

واي مراقب للتاريخ ولسير الحضارات ، وللصلة التي قامت بالضرورة بين ما يعرف الان بالارض العربية والسودان لا بد ان يكرر انه لم يكن امام السودان الا ان يتصل هذا الاتصال بالارض والانسان المتاخمين له . وان تصبح كل عقيدة تؤمن بها الارض العربية بالشمال هي عقيدة السودان ، ذلك ان الراس ينظر الى فوق باستمرار ، وقليلا ما ينزل الى تحت ، وليس انتشار الحضارة الفرعونية في ارض السودان ، ثم انتشار المسيحية في ممالك النوبة الا تاكيد على وحدة التطلع التي ينتج عنها وحدة العقيدة والمصير .

وثمة من يقول — ان العرب عرفوا السودان قبل بعث شخصيتهم ، فقد كانت قبائلهم ترحل الى الارض السودانية ، وكانت بعض هذه القبائل تستقر في الغرب او الشرق تبعا للمدخل الذي جاءت منه .

الا ان الحقائق المقررة هي ان « العروبة » قومية ولسانا وعقيدة دينية لم تعرف السودان بالشكل الواضح الا بعد استيلاء العرب على مصر وبعد سقوط الحكم الروماني البيزنطي ، وبعد ان فتحت « القبطية » المصرية صدرها للعرب .

واول تصادم تاريخي له وزنه بين السودان والوافدين العرب كان في الارض النوبية عندما تقدم « عقبة بن نافع » من اسوان في جنوب مصر الى اول الارض السودانية .. ولكن يبدو ان هذا التصادم لم يتصاعد الى درجة الحرب فقد مضت الامور من خلال اتفاقية شبيهة باتفاقيات الهدنة اليوم .

وهنا عقدت اتفاقية جديدة اصبحت بموجبها — عمليا — بلاد النوبة ممرا للعرب اولئك الذين كانوا يتغلغلون في اعماق الارض السودانية سعيا وراء محاصيلها وانتاجها ، وقد نصت هذه الاتفاقية على السماح للمسلمين باقامة شعائرهم الدينية بحرية وفي قلب العاصمة، واينما كانوا من الارض السودانية التي تخضع لمملكة النوبة .

الا ان « النوبيين » الذين كانوا انذاك اصحاب دولة ، وكانت مشاعرهم القومية قد نمت ثم احتدت امام الاحساس بوجود الغريب الطارىء قد نقضت الاتفاقية الاولى الامر الذي جعل عبدالله بن ابي السرح خلف عمرو بن العاص — والي مصر الاول وفاتحها — يتحرك في محاولة للقضاء على العصبية التي تتحرك عند حدوده فكان ان تقدم بجيش وصل فيه الى « دنقلا » عاصمة مملكة النوبة فأحكم الحصار ، ورماها بالمنجنيق حتى رفعت راية الاستسلام .

وعلى ما يبدو فقادة العرب الاولون — وهم رسل عقيدة بالدرجة الاولى — لم يكونوا يوقعون الهدنة او الاتفاقية لتفي باغراض عسكرية وحسب وانما كانوا يحرصون حرصا شديدا على ان تكون الاتفاقية في الظاهر اتفاقية سلم عسكري ، متضمنة طريقا للفتح الثقافي والعقائدي . وعلى هذا الاساس ، فأن هذه الاتفاقية كانت المعبر الذي دخل منها الاسلام — وهو تراث العروبة وباعث شخصيتها القومية — الى السودان ، لانها كانت على ما هو ظاهر في التاريخ واضحة النص في سماحها للعرب

بالدخول عبر المملكة النوبية الى بقية اجزاء الارض السودانية ، وواضحة النص في ان يمارس هؤلاء شعائرهم الدينية والروحية ، وان يقيموا — من اجل ذلك — المساجد ودور العلم الروحي وكل هذا يعني بالضرورة بذر بذور التراث العربي الاسلامي في الارض السودانية سلما .

وهنا — وامام هذا الواقع — اصبح الشمال السوداني معبرا للعروبة جنسا وعقيدة ، وبدات من خلال رحلة سلمية موجات من القبائل النازحة وراء الربح والكشف ، والارض تدخل السودان .

الا ان هذا لم يكن سببا في هجرات جماعية تستطيع ان تؤثر — من خلال وجود اكبر — تاثيرها المطلوب الذي يحقق فرصة التعريب بمعناه الروحي والعرقي .

وقد بقيت الحال كذلك حتى كان عهد المأمون الخليفة العباسي فتحرك في محاولة لصد عدوان كان اهل البجة يقومون به حينا بعد آخر على اسوان في جنوب مصر ... هنا امر الخليفة بتجهيز حملة عسكرية كبرى قادها عبدالله بن جهم ، حقق بها فتحا عسكريا ، وجعل هيبة الدولة العربية تمتد الى المواقع التي كان العدوان ينطلق منها ، وقد استطاع هذا القائد العربي بذلك ان يفرض اتفاقية جعل بموجبها كل بلاد البجة — وهي ارض واسعة وتمثل جزءا ضخما من الارض السودانية — من اطراف اسوان الى مصوع — الان تتبع الارض الحبشية في ارتيريا — ملكا للخليفة المأمون .

وقد فرض هنا الجزية ، واورد نصا اوضح ان على اهل البجة الا يقتلوا مسلما او ذميا حرا ، او عبدا ، ليس في ارض البجة وانما ايضا في ارض مصر وارض النوبة ، وان يكون واجبا مفروضا عليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين والمقيمين في نفس الوقت الذي نص عليهم الا يحملوا السلاح اذا دخلوا ارض مصر .

ولقد كانت هذه الحملة والاتفاقية التي تبعتها ايذانا بالاستقرار النفسي للعقيدة الوافدة ، وايذانا للقبائل ان تتخذ ارض السودان ممرا ، ومقرا — اذا شاءت — ، وهذا يعني ان الفتح الثقافي والعقائدي العربي قد دخل خطوات متقدمة في الارض السودانية ، وان هذه الخطوات استوجبت على المقيمين ان يكونوا حراسا للعقيدة ، وحراسا على دور هذه العقيدة ومنشآتها ، وان تكون مسؤوليتهم الضخمة الا يحرموا انسانا حقه في ممارسة شعائره ، والا يحرموا مؤمنا — بالعقيدة الوافدة — من فرصته في تبليغ الرسالة وتحقيق الوجود المعنوي للعروبة في الارض التي نزل فيها . بمعنى آخر ان هذه الاتفاقية كانت بمثابة اقرار من البجة لمستقبل العرب بالعقيد ةالتي يحملون ، وكانت بمثابة دعوة للعرب في مصر وغيرها ان يأتوا السودان للعمل والدعوة والاستقرار .

وعندما يتحقق وضعمنهذا النوع فان ذلكَ يعني ذوبان الشخصية القائمة ضمن اطار الشخصية الوافدة خاصة وان الوافد يحمل كلّ الاسباب التي تجعل نفوذه يتحقق من خلال الفكر العقائدي الذي يستطيع فرض نفوذ عقلي ونفسي على الارض اقوى من نفوذ البندقية والسيف .

وهنا يذكر المؤرخون ان الاسلام — وهو دين العروبة وشخصيتها في المرحلة الاولى من بعثتها — قد استطاع ان يشق طريقه الى المناطق السودانية عبر منافذ اخرى ، وانه قد سبق للاسلام الدخولُ الى ارض « البجه » عن طريق قبائلُ « بلى » وجهينة لغرض التجارة وبحثا عن المرعى والذهب .

فاذا تأكدت هذه النظرة التاريخية — وهي على اية حال نظرة راجحة — فأن هذا يعني انه قد افسحت الفرصة التاريخية للعرب كي ينشروا « العربية » — لسانا وعقيدة — بطريقة سريعة من خلال وجود عربي شبه مستقر يتمثلُ بالقبائل ، ومن خلالُ اولئكَ الرسل العابرين ،ولا شك ان هذه الفرصة نادرة اذا تذكرنا ان القبائل التي اتخذت الارض

السودانية مستقرا كانت حريصة ـ من خلال العصبية العربية ـ على معتقدها الروحي . وانها كانت تحس ـ حتى مع الهجرة ـ بانها سادة تنتقل من ارض الى ارض ، وانه من واجبها الحفاظ على ذاتها الروحية والجنسية ، هذا بنفس القدر الذي نتذكر فيه العابرين وما ينقلونه من اخبار المجتمع العربي في حاضرته الكبرى بغداد وفي حواضره الاخرى القريبة في مصر وبر الشام الامر الذي كان يبهر ولا شك سكان الارض السودانية الاصيلين بما يرونه من شخصية كلها اعتزاز عند المستقرين ، وبما يسمعونه من اخبار من الوافدين ، وبما يحسونه من تعلق هؤلاء واولئك بالعروبة ـ عقيدة ولسانا ـ .

ان مثل هذا الوضع ولا شك كان يجذب القلوب ، ويحببها بهذا النمط البشري الحريص على العقيدة ، المؤمن بالذات ، وبالتالي يجعلها لا تنفر منه بل تتقرب اليه ، وتختلط به ، بل تمتزج به هذا الامتزاج الذي نرى ثمرته اليوم في الانسان السوداني المعاصر .

واذا تتبعنا رحلة العروبة الى السودان فاننا نذكر تلك الوقائع المحددة وهي التي اعقبت سقوط الخلافة الاموية ، حيث اعمل العباسيون السيف في رقاب بني امية ، فهربت جموعهم في كل ارض ، وكان ان اختار بعضهم الارض السودانية ، واتخذوا النوبة والبجة موطنا وميناء « باضع » مقرا .

ولقد كانت الجزيرة العربية ، كما هو معروف ، مبعث الهجرات القبلية الكبرى تلك التي كانت تفيض موجة عقب الاخرى على الاطراف المحيطة والتي وصلت صعيد مصر فيما وصلت اليه .

وكان من الطبيعي ـ وقد وصلت هذه القبائل عبر بضعة قرون ـ صعيد مصر ان تضيق الارض ببعضها ، وان ترحل هذه القبائل تحت ضغط قبائل اخرى من هذا الصعيد ، ولم يكن امامها بالضرورة منفذ تذهب فيه سوى الارض السودانية فهاجرت انذاك قبائل كبرى الى الارض السودانية وحققت تزاوجا واضحا بينها كعنصر عربي وبين العنصر الافريقي الخالص .

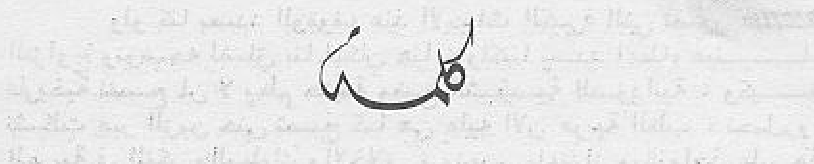
ولعل من يوجز هذه الحقائق هو الدكتور مكي شبيكة في كتابه النفيس « السودان عبر القرون » الذي يورد نصا يحدد فيه اسباب رحلة العرب الى السودان ، فيقول « فبلاد البجة اذا اصبحت مجالا حيويا لقبائل عربية مسلمة بعضها جذب ببريق معدن الذهب ، وبعضها تحت ضغط قبائل اخرى ، وبعضها تخلف بعد نجاح حملات تأديبية وبعضها عبر البحر الاحمر واستقر على الساحل الغربي ، وبعضها تبعت موارد المياه والعشب لانعامها ، واغنامها ، وبعضها لجأ الى الصحراء متوغلا فيها خوفا من سيوف العباسيين » .

ولا ادري لماذا فات الدكتور شبيكة هنا ان يورد الحوافز الروحية والنفسية والقومية التي حركت قبائل ورسل آخرين في المجيء الى الارض السودانية ، واحسب ان الفتح العربي لم يكن كله بدواع مادية صرفة الى هذا الحد ، ولكن كانت الحوافز المعنوية فيه اقوى بكثير من الطموح المادي ، الا ان هذا لا يمنع من القول ان ما جاء على لسان الدكتور شبيكة صحيحا ، ولكن صحته هنا صحة الجزء الذي لم يذكر شيئا عن بقية اجزاء « الكل » فيه .

ومهما يكن الامر فان الامر قد استطرد بهذه الصورة عقب المراحل التاريخية المختلفة ، فكان العرب بصورة مستمرة وخلال قرون طويلة وصولا الى حملات محمد علي في التاريخ الحديث ، على صلة وتماس واحتكاك وصدامات ثقافية ودينية ، وعلى صراع حضاري بين الحضارة العربية الجديدة وبقايا الحضارات القديمة .

وكانوا اهل رزق وسعي وراء الارض الجديدة ، ووراء الذهب ، والانعام ، والنفوذ الادبي والسياسي والروحي ، وكانت الارض السودانية مع كل ما كان فيها ، وامام قوة الوافد وما يحمل من سيف قاطع وفكر حاد ومقنع — تعتبر خلاء تنتظر مثل هذا العنصر حتى تحتضنه وتمضغه في معدتها الوجدانية ثم تعيد افرازه عنصرا جديدا ، يحمل لون الارض التي تشكل عليها ، ومضمون النفس التي لقحته .

ولو كنا بصدد الوقوف عند الاحداث الكبيرة التي تصور هـــذا التزاوج وتوضحه لضاق بنا المكان هنا ، ولكننا بصدد اعطاء عينـــات تاريخية تفصح لمن لا يعلم حقيقة وضع الشخصية السودانية ، وكيـــف تشكلت عبر الزمن حتى تصبح كما هي عليه الان عربية القلب ، تحمل روح العربية في الفكر والسلوك والاخلاق ، وتعض باعتزاز وبالنواجذ على هذا التراث الذي تعتبر نفسها بدونه شيئا معلقا في الفراغ الزمني .



هل استطعنا في هذه المجالة ان نعطي ما هدفنا منه عندماشرعنا في تقديم صورة السودان ؟

اظننا لم نفعل ذلك بالقدر الذي نطمح فيه ، لان الصورة كانت امامنا اكثر من قدرة مدانا الزمني على الاستيعاب ، ولاننا اصلا لم نضع في الخاطر ـ ونحن نحاول نقل الصورة ـ ان تكون صورة شاملة ترسم كل الملامح الدقيقة ، والتفاصيل المختلفة للوجه السوداني الذي يغطي ارضا مساحتها مليون ميل .

لقد فعلنا شيئا مما يمكن ان ينقله رحالة بهرته الطبيعة ومن عليها ، وبهره الافق الرحب المدى ، وبهره معدن الانسان وخلقه فحاول ان ينقل ما انطبع على صفحة نفسه من هذا الانبهار .

الا ان محاولتنا هذه تميزت ـ بكل تواضع ـ بالصدق ، وهذا في حسابنا شفيعها ، وتميزت بشيء من التفرد العربي لان مع كل بحثنا وقراءتنا عن السودان لم نر بحثا مستفيضا ولا دراسة واضحة ، ولا كتابا عاديا يقف عند الشخصية السودانية وياخذها بالتامل والاستطلاع .

ومهما يكن فاننا نريد ان نقول ان كل ما جاء في هذا الكتاب ما هو الا ملامح اجمالية ، وان الشخصية السودانية ومعها هذه الارض المظيمة بحاجة الى جهد اكبر من هذا الجهد ، والى متفرغين يجوبون ارض السودان من اقصاه الى اقصاه ، ويتوقفون عند كل جزء من الارض وقفة مملوءة بالعناية ، محشودة بالتقصي .

ان السودان هذه الارض العربية الكبرى ... التي اهملها الخاطر العربي لفترة ، والتي لا يعرف عنها الكثيرون من ابناء امتنا الا الاسم بحاجة الى جيش ضخم من الكتاب المبدعين ، ومن الرسامين والشعراء ، ومن اهل الفكر والباحثين ومن كل اولئك الذين اوتوا موهبة الفحص والتامل ونقل الصورة الامينة والمعبرة .. بحاجة الى كل هؤلاءكي يقول كل منهم كلمته غير العادية عن السودان ، وليفصح باداته الفنية عن كل المكنونات والخبايا في هذه الشخصية الرحبة العظيمة .

وعندي ان ليس ابناء الوطن العربي وحدهم هم المدعوين لمعرفة الارض السودانية ودراستها وتقديم صورتها ، وانماابناء الوطن السوداني انفسهم ايضا ، ذلك ان السودان العظيم ليس واضحا كل الوضوح عند ابنائه ومبهما عند ابناء الامة العربية ، فالسودانيون انفسهم بحاجة الى معرفة المزيد عن حياتهم وارضهم وتقاليدهم ، وبنفس القدر الذي يحتاج فيه السودان الى ادوات مكتشفة خارجية بحاجة الى عناصر من الداخل تقوم بنفس الغرض ، ذلك انه اذا كان من المطلوب الضروري ان يقدم الانسان صورته الطيبة الى الاخرين فانه من الاولى ان يقدم صورته الى نفسه ، واحسب ان الانسان يبدا باستمرار النظر في المرآة كي يرى صورته وانه يفعل ذلك بين حين وآخر ، وانه عندما تروقه نفسه او يروقه بعض ما عنده يقدم هذه النفس الى الاخرين سواء اعلن ذلك على نفسه او كتم في احساسه اللاواعي هذه الدعوى .

وبعد لا املك الا ان اقول انني كنت سعيدا عندما تعرفت على السودان ، وانني الان — وانا فلسطيني بلا وطن — لو خيرت ان اختار وطنا لاخترت السودان .